17 e Année No. 837

Lundi – 18 – 7 – 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٨٣٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٢ رمضان سنة ١٣٦٨ — ١٨ يوليو سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

١١ – أمم حــــائرة

الإيمــــان بالله

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض بالمملكة السعودية

قوام العقائد الصحيحة ، ونظام السِّيَر القويمة ، وعماد الحياة الروحية السعيدة ، ومَدَد كل خير ، ومنبع كل طمأنينة ، ومصدر كل سعادة ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، والسَّنَن القويم ، والمنير فى ظلمات الحياة ، والدليل فى مجاهلها ، والجامع ما ظهر وما بطن من حقائق العالم ، والمجلِّى لما جلَّ وما دقَّ من مواهب الإنسان — هو الإيمان بالحقيقة العظمى ، حقيقة الحقائق ، ومركز الدائرة من الخلائق ، الحقيقة التى نطق بها الكون مُفصحاً ومعجماً وصريحاً ومجمجماً ، وتكلم بها الإنسان ضالا ومَهدياً ، وسعيداً وشقياً ، ، وقرأها القارىء والأمى ، وبصر بها البصير والضرير ، وأعرب عنها الناطق والصامت ، وتحدث بها المتكلم والساكت ، وأقرَّ بها المنكر وهو لا يدرى ، واعترف بها الجاحد وهو لا يشعر ، والتى ظهرت حتى بهرت ، واستسرَّت حتى حيرت . وهى فى خفائها ظاهرة للمتوسمين ، وفى ظهورها خافية على الغافلين . الحقيقة التى تخترق كل حجاب ، وتدخل من كل باب . ويبين عنها النور والظلام ، كسواد المداد وبياض القرطاس ، لا تدرى أيهما أدلُّ على المكتوب ، وأهدى إلى المحجوب ، وكالليل والنهار ، فى نظام الشهور والأعوام ، من النور والظلام ، فيهما يسير الزمان ، ويستمر الحسبان .

ذلكم الإيمان بالله جل وعلا .

« تسبِّح له السموات والأرض ومن فيهن . وإن من شىء إلا يُسبح بحمده ؛ ولكن لا تفقهون تسبيحهم . »

الإيمان بالله حياة النفوس وقوامها . يجمعها ويدفعها ويصلها بالكون العام ، والروح الشامل ، فينظم قواها ، ويُحكم ملكاتها ، ويشرف بها على العالَم ، مسيطرة عليه ، نافذة إلى أسراره ، مسخرة لقوانينه . لا تتفرق أجزاء متخاذلة ، ولا تتساقط أهواء متهافتة ، ولا تضطرب مطامع ومخاوف ، يجذبها ميل ويدفعها آخر ، وتُقدم بها رغبة ، وتصدها رهبة ، بل تضىء سريرتها ، وتصفو بصيرتها ، وتستقيم سبيلها ، وتبين غايتها .

والإيمان بالله العظيم ، وذكره والاتصال به ، تملأ النفس عظمة وقوَّة ، وتُصغر أمامها الأهوال ، وتذلل العقبات ، فتنطلق كأنها إرادة الله فى خلقه ، وقدره فى عباده . ولله من عظماء خلقه أقدار . يسلطهم ويمكنهم ، فإذا هم ينشئون الأجيال ، ويخلقون الأعصار . لا يبالون بالزمان والمكان ، ولا يفرقون بين اليسير والعسير ، والبعيد والقريب ، يُصدِّق الله أقوالهم ، ويُبر أقسامهم . ويقسم بأيديهم أرزاقه ، ويُصرِّف بعزائمهم أقداره . بسرِّهم الإيمان ،

وأشاء لهم العقل والوجدان . . لولا الإيمان بالله ما اهتدوا ولا قدروا ، وما جاهدوا وما صبروا .

والإيمان بالله الواحد السلام ، يُوحد النفس ويملؤها سلاماً ووئاماً ، وألفة ونظاماً ، فتدرك الائتلاف في الحق والخير والجمال والحب ، وتعرف التنافر في الباطل والشر ، والقبح والبغض . فتسير على الأرض سلاماً يهدى إلى السلام ، ونظاماً يدعو إلى النظام ، وجمالا يهفو إلى الجمال ، وحباً يرشد إلى الحب .

وما أحسب الشر وما يتصل به في هذا العالم إلا قلقاً وتنافراً أو سبيلا إلى القلق والتنافر . ولا أرى الخير وما هو منه بسبيل إلا سكينة وائتلافاً ، أو وسيلة إلى الائتلاف والسكينة . وإذا لم يُوحد النفس الإيمان ، تنازعتها أصنام من آلهة أو أهواء ، وتجاذبتها أوثان من أرباب أو مطامع ، فلم تلتئم في نفسها ، ولم تعرف الالتئام في غيرها .

ذلكم مبدأ الضلال والهدى ، والشقاء والسعادة .

والإيمان بالله الذى لا يحدّه زمان ولا مكان ، يطلق النفس من قيودها ، ويخرجها من حدودها ويرفعها على الزمان والمكان ، فإذا هى ، فيما تحب وتكره ، وفيما تأتى وتذر ، سُنة من سنن الله لا تحول ، وقانون من قوانينه لا يزول . فتستكبر على الشهوات المحدودة ، والنزعات الضيّقة ، ولا تُبالى النافع والضار الخاصة ، فيسعى الإنسان لنفسه ولأسرته ولطائفته ولأمته وللناس جميعاً ، على قوانين الحق العامة ، وسُنن الخير الشاملة ، لا يسعه غيرُها ، ولا يتسع هو لغيرها . وكذلك يعلو على الأهواء والعصبيات والنزعات والنزغات المتزاحمة المتصادمة ، المتنازعة المتقاتلة ، المنفرة المفرّقة ، المهلكة المدمرة . إنما انتصاره للحق والحق لا يتغير ، وتحيزه للعدل والعدل لا يتعدد . فهو في توحيد من إيمانه ، ومن عقله ووجدانه ، ومن قوله وفعله ، في سرّه وعلنه .

* * *

إذا أضاء الإيمان بالله في سرائر الإنسان ، وعمل في نفسه فجمعها ورفعها ووصلها بالحق والخير ، وعظمها وقوّاها ، وأحكم قواها ، ووحدها وملأها سلاماً ووئاماً ، وحباً للحقّ والخير والجمال ، ثم أطلقها من قيودها ، وأخرجها من حدودها ، عملت جاهدة مصلحة راضية صابرة ، وأدركت اللذات الروحية وأنست بها ، وسكنت إليها ، وكلفت بالسلام والوئام ، وبكل ائتلاف واتفاق ، ونفرت من كل اضطراب واختلاف ، وتفرق وتنافر .

وقد جاء في بعض الآثار أن يتشبه المخلوق بخالقه ، أو يتخلق العبد بأخلاق ربه . فهذا هو التشبه والتخلق . يسير الإنسان من الخاص إلى العام ، ومن المقيد إلى المطلق ، ومن المتغير إلى الثابت ، ومن الجزئيات إلى الكليات ، ومن الأحداث الفانية إلى الباقيات الصالحات ، حتى يكون كأنه سنة من سنن الله في خلقه ، وشريعة من شرائعه في عباده . وإذا نزعاته وشهواته مهجورة إلى الخير العام ، بل نزعاته وشهواته في الخير العام ، ولذته وطمأنينته في صلاح الناس كلهم ، وانتظام العالم جميعه .

وإن لم يكن هذا هو الفناء في الله كما قال الصوفية فليس بعيداً منه ، وإن لم يكن هو البقاء بعد الفناء في طريقتهم فليس نائياً عنه .

عبد الوهاب عزام

المتنـــبي . . .

للأستاذ راجي الراعي

تمر الأجيال بالمتنبي فلا تجسر أن تلقي عليه ستار النسيان وتتابع السير في طريقها فيستوقفها لتنشد الشعر ؛ شعره الذي نظمه كله ليرويه له الدهر فتروي له بعضه والموتى من حوله واقفون إجلالا والخلود يلقي ظلاله وينصت فخوراً طروباً ...

وليس من السهل أن تنطفيء شعلة أضرمها المتنبي . ومن يزر ضريحه يشهد فوقه كل يوم صراعاً دامياً بين الموت والخلود يقع بعده الموت في كل مرة قتيلا يتشحط في دمه ... إن الموت يخاف الشاعر العبقري ويحسب له حساب خلوده . وهو إذا أتاه أتاه مكرهاً قياماً بوظيفته التي لا تعرف الإقالة والاستقالة ، وكل ما يستطيعه الموت هو أن يوقف حركة القلب الواحد الخفاق في صدر الشاعر العظيم . أما القلوب الأخرى التي يحملها فتظل على الرغم من الموت والفناء حية نابضة في صدور قصائده ...

ها هو ذا المتنبي الذي قال الشعر لينشده الدهر ، يقف أمامي في ساحة الموت في نبوته التي لم تشهده نبياً أتحدث إليه أو أتحدث عنه كأن ابن أبي جهل لم يضربه تلك الضربة التي حسبها قاضية ولم تقض له أمراً ... وإذا كنت قد فكرت في المتنبي وناديته في عالم الأرواح لأراه وأحييه وأقول كلمتي فيه والناس لا يحتفلون بذكراه التي مضى يومها ، فذلك لأني لا أحب أن أتقيد بما يتقيد به الناس وهم يحتفلون بموتاهم ويحددون لاحتفالاتهم البرامج والمواعيد . فليت الحي الكبير ماثل أمامي في كل حين أناجيه ويناجيني . وليس المتنبي يوم غاص لذكراه ثم تطوى صفحته ، إن له علينا حقه الكبير كلما أشرقت هذه الشمس وغابت بالأشعة من شاعريته . ومن أخلص لمن أحبه وقد هيل عليه التراب دفعه الحب والوفاء إلى رفع الغطاء عن ضريحه بين الحين والحين ليرى وجهه ويشعره أن يد الموت قصرت عنه ...

وبعد فمن هو المتنبي ؟ من يكون هذا الجبار الذي تهيبه الردى فارتد عنه ؟ إنه يطربنا ، فما هو هذا الذي يطربنا به ؟ وهل كل ما فيه يطرب ؟ وكيف رفع بناؤه ؟ وهل من صدوع في ذلك البناء؟ وما هي وأين هي ؟ ما هي نقطة الاحتراق التي التقت فيها أشعته ؟

قال بعضهم إنه أشعر الشعراء ؛ ولكنني لا أذهب إلى هذا الحد ، فلا محل لأفعل التفضيل . كتاب الشعر ودولة الشعر لا تعرف لها ملكا واحداً ؛ وإنما هي عروش وإمارات متفرقة . وصولجان الشعر أكبر وأرفع من أن تقبض عليه يد واحدة ولو كانت يد هوميرس ...

لكل شاعر لونه وصوره ومجاله ؛ والألوان والصور والمجالات كثيرة ، فما هو مجال المتنبي ؟

هو شاعر القوة والطموح والكبرياء ، يطاعن خيلا من فوارسها الدهر ، ويقدم إقدام الأتي كأن له سوى مهجته ، ويعلن أنه « إذا قال شعراً أصبح الدهر منشداً » وأن « الخيل والليل والبيداء تعرفه والسيف والرمح والقرطاس والقلم » ويجري القسمة على هواه « فلله النفوس والطير اللحوم والوحش العظام وللخيالة السلب » وليته أبقى للخيالة غير هذا الدور ولم يدخل السلب في هذه القسمة التي تخيلتها البطولة .

هو سيد الأولب وشقيق الشنفرى ورب البادية والسيف والقلم . هو القوة بكل ما فيها ؛ ولكنها قوة لم تتعد عالم خياله . أرته في ما أرته النبوة ؛ فلما عاد من تحليقه إلى الأرض والتفت حوله لم يجد المحراب ولا المصلين .. نبي وهم وخيال ؛ غير أن هذا الطموح إلى ذروة الذرى نفخ في شعره الروح التي تهتز لها ؛ ولولاها لما استطاع أن يأتينا بروائعه ... إن الكبرياء شيء لا غنى عنه للفنان الكبير ، فهو يقيم على قاعدتها تماثيله الفنية . .

هو الشاعر الذي يدور في شعره حول كلمة هي « أنا » ، وقد تمركزت في رأسه وتزعمت ، وللرأس زعامته ، فدارت حولها الصور النفسية الأخرى . ولو أن المتنبي نظر إلى العظمة دون أن ينظر إلى نفسه لكان شعره أبلغ أثراً في النفوس ، فكلمة « أنا » وإن نبعت من أعماق طبيعة الإنسان لا يلتف حولها الخلق ، وهي تشير إلى المتكلم ، التفافهم حول العظمة العامة الشاملة ... إن تغنيك بعظمتك شيء وتغنيك بالعظمة شيء آخر .. وقد خيل إلى البعض أن المتنبي نسي تغنيه بنفسه عند ما راح ينظم القصائد لسيف الدولة وعضد الدولة وابن العميد وكافور ، ويرفعهم بمدائحه

إلى الأوج طمعاً فى المال الذى كانوا يغدقونه عليه ، وتساءلوا عن عظمته وهو بين أيديهم . والحق أن المتنبي أنفق الكثير من عبقريته فى هذه السوق الملكية الرابحة بدلا من أن يقول الشعر للشعر ويقيم هيا كله للفن وآلهته وروحانيته . غير أن من نظر إلى البيئة التى نشـأ فيها وإلى العقيدة العربية وسلطان الملوك فى عهده وقدرهم قدر الشعراء لا يرى فى مدائحه الملوك ما ينقص من عظمته التى كانت تنال مكانها لو أنه كف عن هجائهم يوم كانوا يقطعون عنه الصلات ...

المتنبي شاعر الخيال قبل أن يكون شاعر العاطفة ؛ فخياله أكبر من قلبه . إن بدائعه صور تصيبك بدوار الإعجاب ، ولكنك لا تسمع فيها صراخ القلب ونحيبه . ولعل طموحه وتعاظمه شغلاه عن الدمع فلم يأت به غزيراً محرقاً ، وعن دم القلب الجريح فلم يره إلا على شفار السيوف ، وحولاه عن المرأة مع مالها من سلطان وصدر أرضع الشعراء فى كل زمان ومكان فلم يقف عندها طويلا ، فى حين أن أبياته فيها حين كانت تستوقفه فى سيره إلى العظمة لا تنحط عن سائر ديوانه ، بل هى أشد ما فيه روعة وقد فاض بها القلب . وهل أجمل من قوله :

* تناهى سكون الحسن من حركاتها *

وقوله :

أراها لكثرة العشـــاق   تحسب الدمع خلقة فى المآق

وقوله :

نرى عظما بالبين والصد أعظم   ونتهم الواشين والدمع منهم
ومن لبه مع غيره كيف حاله   ومن سره فى جفنه كيف يكتم
ولما التقينا والنوى ورقيبنا   غفولان عنا ظلت أبكى وتبسم
فلم أر بدراً ضاحكا قبل وجهها   ولم تر قبـــلى ميّتاً يتكلم

ليت المتنبي وقف طويلا عند هـذا الوتر من قيثارته ! كان لامرئ القيس عنيزة ، ولطرفة هريرة ، ولمجنون ليلى ليلاه ، ولجميل بثينة ، ولابن أبى ربيعة الثريا ، وللبحترى علوة . أما المتنبي فقد كان عالياً على الحسناء ، (علوته) العلياء ...

ولا نرى المتنبي يشرب الكأس التى نعرفها للشاعر ونعرفه وإنما كانت كاسه كأساً صب فيها بدل الخمرة مجداً سكر به فلم يسأل من الخمار والخمرة ولم يقل فيها وحولها شعراً لا سراً ولا جهراً ، وكم من شاعر استعان بها لتثير ما كمن فى صدره وتطلقه سحرا ومعجزات . كان شاعر الخمرة التى لا كأس لها ، شاعر العروش التى لم يشأ أن يجلس عليها المرأة وهى التى تقيمها ...

ليس المتنبي مع إبداعه بالشاعر الوجدانى الروحانى ؛ فاعتداده بنفسه ومزاجه وبيئته ، وحبه المال ، وبريق سيوفه وعزيم رعوده وصهيل خيوله وروعة أوتاره أقصته عن تلك الأصوات والهمسات التى تأتى من الأعماق فلم يسمعها ؛ فهو يمدح ويهجو ويرثى ويصف ويفخر ويتنزل ويطلق الحكم ، ولكنك لا تحس فى ذلك كله تلك الخلجات والرعشات التى لا يعرفها غير الإحساس المرهف الدقيق الصارخ القاطر دماً ودمعاً ، القائم بين الحيرة والاضطراب والذهول والوجد .. كان شاعر الحس والمادة لا شاعر الروح والروحانية ..

وكان شاعر الحكمة التى تكاد تحتل قمة شاعريته ، وكأنه شعر بذلك فقال : أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى .

إن الحكم والأمثال التى أطلقها هى الدعامة الكبرى التى قامت عليها شهرته فقد تداولها الناس وحفظوها لأنها تعبر عما تنطوى عليه صدورهم ، وهى حكم وأمثال معروفة دونت قبله بأجيال فلا إبداع فيها ، ولكنه عرف كيف يصوغها فى قالب جديد .

إن فى شعر المتنبي روعة الصور التى يجيش بها الخيال الخلاق وهو اليد التى تشير إلى العبقرية . وقول القائلين إنه سرق بعض شعره قول فيه الكثير من الجور والتعسف ؛ فشاعر يأتيك بقوله :

وتكاد الظبي لما عودوها   تنتضى نفسها إلى الأعناق

وقوله :

كأنها الشمس يعيي كف قابضه   شعاعها ويراه الطرف مقتربا

وقوله :

وخصر تثبت الأبصار فيه   كأن عليه من حدق نطاقا

لا تنسب إليه السرقة فى الشعر . ويكفى أن يأتى الشاعر ببيت واحد يدل على الإبداع حتى يقال إن فيه منجما من ذهب ..

على أن كل ما قذفت به أرحام المتنبي ليس بالرائع المعجيب . فبينا تسمعه يقول :

أمغفّر الليث الهزبر بسوطه   لمن ادخرت الصارم المصقولا

إذا بك تقع على قوله :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم   شيم على الحسب الأغر دلائل

وقوله :

هذى برزت لنا فهجت رسيسا   ثم انصرفت وما شفيت نسيسا

وقوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم   إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

إلى ما هناك من هذا الطراز .

لو كان تساطم المتنبي سمح له بأن يضحي ببعض ما نظم لزاد عدد ملوكه وقل حجابه ... وحبذا لو اختير الملوك في شعر المتنبي وجمعوا في قاعة واحدة فيتجلى سلطانه على غير الوجه الذى يعرفه الناس. هذا الكتاب الذى يجمع ملوك المتنبي وجواهره دون الحجاب والأصداف تطالب به المكتبة العربية وهو روح ديوانه ! وهو ديوانه الحقيق الذى لا أرى له في غيره رونقين ينطح بهما النجوم ودهراً يروى له القصائد وينشد ..

راجي الراعي

صور من الحياة :

زَلَّـــــةٌ ... !

للأستاذ كامل محمود حبيب

يا عجباً ! وَىْ كأن الحياة تأبى إلا أن تسخر منك – يا صاحبي – فتفسح لى مكاناً في زاوية من دارك لأكتب قصة حياتك بين جدران حجرتك ، أستلهم الوحى مما كان يدور هناك من عبث وسخف ، وألتقط المعانى مما كان يشرق به المكان من حماقة وطيش .

خبِّرنى ، يا صاحبي ، أى لذة استشعرتها في الكأس الأولى عند أول رشفة تجرعتها من قدح الخمر ؟ لا تدع قلبي يرثى لحماقتك وأنت ما تزال فتى في عنفوان العمر ، ولا تذر النفس تساقط حسرات لجهلك وأنت موظف كبير تدر عليك الوظيفة ما يكفيك أنت وزوجك وأولادك . آه ، يا صاحبي ، لو تاب عقلك فرجعت عن غيك ! إذن لأصبحت – كما عرفتك منذ سنوات – رجلا طيب النفس هادئ الطبع رضى الخلق.

• • •

لقد عرفتك ، يا صاحبي ، بعد أن تخرجت في كلية التجارة ، شاباً كثير الدأب والنشاط شديد القوة مفتول العضل وسيم الطلعة جميل السمت ، ولمست فيك توقد الذكاء ورجحان العقل وقوة الحجة ، ثم ضربتْ بيني وبينك نوازع الحياة ومشاغل الوظيفة فما تلاقينا منذ سنوات .

أما أنت فقد تلقفتك الحياة لتلقى بك بين براثن الشهوة وتقذف بك بين مخالب الشر . وقال لك شيطانك : لا عليك إن أنت ألقيت بدلوك في الدلاء فتكون قد تذوقت رحيق الحياة ورشفت رضاب اللذة واستمتعت بجمال السعادة .

إن الحياء الذى دفعك عن النساء هو الذى دفعك لتعب الكأس الأولى حتى الثمالة .

وسرت حميا الخمر – أول الأمر – في مفاصلك فأحسست بالنشوة تتدفق في عروقك فتشيع المرح في أعصابك والطرب في قلبك . وخيل إليك أن في الخمر سحراً تنجاب له هموم النفس وتنزاح أعباء الروح ، فطابت لها خواطرك وهدأت جائشتك : لا ضير علىَّ إن أنا اختلست من عمرى فترات أقضيها بين رفاق الحانة أسعد بحديثهم وهو حلو وأشاطرهم الكأس وهى لذيذة ، وأنا أجد فيها شفاء من رهق الحياة ودواء من هموم العيش وجلاء من صدأ العقل . ولكن الخمر جذبتك إليها في شدة وعنف فما استطعت أن تنصرف عنها . يا لحماقتك يا من تضع قدميك عند حافة الهاوية ثم تطمع أن ترتد عنها قبل أن تبلغ القرار !

لقد كان راتبك يربو على حاجات عيشك ، ومتعة نفسك ، ولذة قلبك . ولكن الخمر قد سيطرت عليك فسلبتك مالك ، واستنفدت وفرك ، فقنعت بالعيش الخشن ، واللباس الوضيع ، والحياة المضطربة ، ثم شعرت بضيق ذات اليد ، فتعرفت على (فلان بك) ، وهو فتى في مثل سنك من أبناء الذوات ، يغمره الثراء ويفهق جيبه المال ، ولصقت به في غدوه ورواحه ، تشاركه عبثه ولهوه ، وتشاطره هزله وجده ، وراقه حديثك وطرب له ، فصاحبك وسكن إليك . ووجدت أنت في ماله دريئة تقيك ثمن الخمر وهو باهظ ، وتزيح عنك تكاليف اللهو وهى ثقيلة ، ثم أعطت همتك ، وسفلت رجولتك ، ففتحت له بابك ، وأفسحت له مكاناً بين زوجك وأولادك ليقضى هناك لياليه في عبث ومجون

وقد لعبت الخمر بعقله وهتكت عنه أستار الخجل وسلبته نعمة الحياء . ثم مرت أيام فإذا رفيقك — سعادة البك — يحس بثقلك ويضيق بشهواتك ويضن عليك بماله ، ثم راح يدفعك عنه — بادئ ذي بدئ — في رفق ولين ، ويفر من صحبتك في لباقة وذوق . ثم ضاق بك مرة أخرى فانطوى عنك وأنت تطلبه وينفر منك وأنت تتلمسه ، ثم طار عنك فما عدت تراه ولا تسعد بماله .

ونظرت حواليك فإذا سعادة البك قد ضربك بالقلى والهجران وصفعك بالاحتقار والازدراء ، وإذا راتبك لا يكفيك إلا أياماً . لقد خذلك رفيق اللهو وإن الذكاء ليتألق في ناظريك ، وإن الحيلة لتضطرب في خيالك ، وأنت موظف كبير في مصلحة الضرائب . وركبك شيطان الخمر وشيطان الحاجة معاً حين عزّ عليك ألا تجد ما تنفقه في ملذاتك التافهة ، وألا تجد ما تسد به طلبات زوجك وأولادك ، وخشيت أن تنهار حياتك في المنزل وأن تبدو على أولادك سمات الذلة والمسكنة ، فانطلقت تريد أن تتلمس فرجة تنفذ منها إلى رغبات نفسك ورغبات الأسرة .

وخلوت إلى نفسك تحدثها حديث شهواتك والشيطان من ورائك يوسوس لك ويزين الشر في عينيك ، ورأيت في مصلحة الضرائب فجوات يستطيع المرء أن ينفذ منها إلى المال في غير مشقة وأن يبلغ الثراء من خلالها في غير جهد ، ولكنك نسيت أنها فجوات لا يسترها إلا الرياء والمداهنة ، ولا يداريها إلا المكر والخداع ، ونسيت أيضاً أنك إن واريت الجيفة التراب لم تستطع أن تكتم رائحتها النتنة أن تفوح فتملأ الخياشيم فتتقزز لها النفس

ثم غدوت تجمع حواليك أصحاب رءوس الأموال من التجار والصناع تناقشهم في يسر وتخضع لهم بالقول وتتبسط معهم في الحديث حتى أنسوا إليك . لقد كان الواحد منهم — من قبل — يخشى وطأة قلمك ويرتعد لحدة ذكائك ويشفق من سلاطة لسانك ويفزع من جفوة حديثك . أما الآن فقد انفتح الباب ولان الحاجب و ...

وهمست الألسن بكلمات ، وطارت شائعة بين موظفي مأمورية الضرائب أنك — لأمر ما — نزلت من جفوتك ونأيت عن غلظتك وجمت كبار التجار والصناع في مكتبك تحوم بسلطانك وتسبغ عليهم من رقتك وظرفك .

وجاءك — ذات مرة — تاجر أجنبي من كبار التجار يساومك لترفع عن ظهره الرقيق سوط المصلحة وهو جاف غليظ ويوحي إليك أنه يريد أن يدفع ثمن رأيك وجاهك ، فوعدته ... وجلس التاجر أمامك في صمت وأمل ليرى ما عساه أن يكون . وأمرت أنت فجاءك موظف شاب سمهري القوام مرفوع الرأس علامة الكبرياء ، ثابت الخطوة علامة الثقة بالنفس ، تتأجج في عينيه نار الذكاء وتبدو على قسمات وجهه سمات الفطنة وتتوثب حركاته نشاطاً وحياة وهو — إلى ذلك — جميل الطلعة طلق المحيا أنيق اللباس من أثر النعمة والثراء ...

جاء الموظف الشاب يتأبط أوراقاً وفي رأيه أنك تسهلت بعد صعوبة ، ولنت بعد صلابة ، وأسلست بعد شماس ، ونظر فرأى التاجر إلى جانبك فبدا له ما تكن نفسك ، وآذاه أن تحدثه في شأن من شئون العمل وهذا التاجر الأجنبي يسمع ويرى ، ولكنه صبر على مضض وسكن على غيظ ، وبدأت أنت تحدث الموظف الشاب بقولك : « ما ذا فعلت — يا بني — بهذا الملف » فقال في هدوء : « ياسيدي ، لقد انتهيت من فحصه وربطت عليه الضرائب ، والأمر الآن في سبيل التنفيذ » . فقلت أنت : « ولكني أريد أن تجيل بصرك ورأيك فيه مرة أخرى ، لأن التاجر يشكو عنت المصلحة وغلوها فأجابك « لا سبيل إلى ذلك ، فالعمل من ورائي يستحثني وقد خلصت من هذا الأمر منذ زمان » فقلت له في غلظة « ولكنني آمرك » فنظر إليك الموظف الشاب في احتقار ونفضك في مهانة ثم قال لك « تأمرني ، نعم ، لأنك رئيسي ، ولكنني لن أطيع أمرك » فنهرته في شدة قائلاً « ماذا ؟ ماذا تقول ؟ كيف ؟ إنني آمرك ولا بد أن تطيع » فألقى الموظف الشاب أوراقه على مكتبك وخرج من لدنك وهو يقول « هذا هو الملف خذه ، افعل به ما تشاء . أما أنا فسأعرض الأمر على سعادة المدير العام ! » وسقط في يدك ، يا صاحبي ، حين ألقى الموظف الشاب عليك درساً عنيفاً قاسياً لن تنساه أبداً ؛ لأنه امتهنك أمام التاجر الأجنبي ولأنه سخر من أمرك وعبث برغبتك ، فما استطعت أن تفعل شيئاً .

* * *

الآن برح الخفاء واستحالت الهمسات إلى كلام يسمع ،

خليـــل مطران

١٨٧١ - ١٩٤٩

فجع العالم العربي بأفول نجم لامع في سماء الشعر والبيان، شغل الناس أكثر من نصف قرن بشعره الطريف الجديد.

ولد خليل مطران سنة ١٨٧١ في بعلبك ونشأ تحت سماء سورية بين أوديتها الخضراء وجبالها البيضاء وبحرها الصافي وأمواجه المتدفقة وصخوره الناتئة، فكان لذلك كله الأثر البيّن في صقل خياله وتغذية روحه ووجدانه بالعواطف النبيلة والجمال العبقري. ثم قدم مصر سنة ١٨٩٢ وهو ما يزال في فورة الشباب فشب وترعرع بين ربوع النيل وبين آثار الدنيا القديمة وأهرام مصر الخالدة، فهو شاعر بعلبك والأهرام، تغنّى بوطنيّه في قصائده الرائعة. وهو إذ يذكر بعلبك وآثارها، إنما يذكر أيام الطفولة المرحة والحياة الطروبة، ويحنّ إلى وطنه الأول ومسقط رأسه. استمع إليه في قصيدة «بعلبك» يصف آثارها وقلعتها ويتذكر طفولته:

إيه آثار بعلبك سـلام ... بعد طول النوى وبُعد المزار!
ذكريني طفولتي وأعيدي ... رسم عهد عن أعيني متوارى
يوم أمشي على الطلول الـرواجي ... لا اقترار فيهنّ إلا اقتراري
نزقاً بينهن غِراً لعوباً ... لاهياً عن تبصر واعتبار ...

إلى آخر هذه الأبيات الوجدانية الرقيقة.

وهو إذ يتغنى بمصر وطنه الثاني، إنما يتغنى بمجدها التليد وأهرامها المجيدة ونيلها السعيد وسمائها الصافية ويثني عليها وعلى كرم ضيافتها ونبل أخلاق شعبها العريق. استمع إليه يقول:

يا مصر أنت الأهل والوطن ... وحمى على الأرواح مؤتمن
أي البلاد كمصر ما برحت ... روضاً بها يتفيـد الظعن
فيها الصفاء وما به كدر ... فيها السناء وما بها غضن
مصر التي أخـلاق أمتها ... زهر سقاه العارض الهتن
فهي التي عرفت مروءتها ... أمم ويعرف مجدها الزمن

ويقول من قصيدة «تحية الشام لمصر»:

تتناقله الألسن في نواحي المصلحة ويتشدق به صغار الموظفين، فما لبث أن بلغ مسمعي المدير العام. وذعر المدير للخبر وعجب أن يندغ في هذه الحماة موظف في المصلحة ذو رأي ومكانة. وتحدث إليك بالأمر فما استطعت أن تنكر وأمامك الموظف الشاب يرمقك بنظرات يتطاير الشرر من خلالها. وترفق بك المدير فأرغمك على أن تترك المصلحة كلها في أقرب وقت.

ولفظتك المصلحة لتلقي بك في زاوية من وزارة المالية وإن رائحة النتن لتفوح من بين مخازيك، وأصبحت مفتشاً بالمالية. والمفتش في رأي الحكومة موظف واهي الهمة أو وضيع الكرامة لا يستطيع أن ينهض بعمل ولكنه يتحاشى عليها أن تقذف به إلى الشارع لأن القانون يحميه، وهو — دائماً — يكتب التقارير لتلقى في سلة المهملات.

• • •

والآن، يا صاحبي، لقد اثلمت كرامتك ولوثت الأقذار ذكرك من أثر الإدمان على الخمر، ولكنك ما تزال تأنس إلى الشراب وتطمئن إلى الكأس، فعمي بصرك عن حاجات البيت فهذه زوجك تضيق بك لأنك تنفق جل مالك في التافه الوضيع وتتغاضى عن رغبات نفسها، ولأنك — دائماً — محطم الأعصاب ثائر النفس كثير الشغب في المنزل وفي الديوان وفي الشارع. وإن أولادك ليفتقدون عطفك أحوج ما يكونون إليه، ويفتقدون مالك حين يحسون الضياع والشقوة وإن شهواتهم لتدفعهم إلى اللباس الأنيق والطعام الشهي وإلى الحلوى واللعب فلا يجدون شيئاً منها، ويفتقدون عقلك حين تترنح في فناء الدار من أثر الخمر، ويفتقدون الهدوء حين يعج المنزل برفاق السوء.

فهل تستشعر — يا صاحبي — اللذة في الكأس أو تلمس السعادة في الشراب؟ إن قلبي يرثي لحماقتك وإن نفسي تتساقط حسرات لجهلك، لأنني عرفتك يوم أن كنت فتى متوقد الذكاء راجح العقل قوي الحجة تفور شباباً وقوة وجمالاً ...

كامل محمود حبيب

فيا أيها الوطنان إلى وسيط العقد فى هذا النظام
بلادى لا يزال هواك منى كما كان الهوى قبل الفطام

* * *

قدم خليل مطران مصر وعرف صاحب الأهرام واشتغل مدة فى تحريرها ، ثم أصدر جريدة الجوائب ، وأنشأ أيضاً المجلة المصرية ، واشترك فى تحرير المؤيد واللواء ، وناصر المرحوم مصطفى كامل فى جهاده المجيد ، وأتقن دراسة الأدب العربى قديمه وحديثه ، كما أتقن الأدب الفرنسى مما أثر فى نزعته الثورية إلى التجديد فى الشعر إلى أبعد حدود التأثير . ولم تشغله صناعة الأدب عن أعمال ليس لها صلة بالأدب ، وهو فى أثناء ذلك كله لم ينقطع عن نظم الشعر والتأليف المسرحى وترجمة المسرحيات . وقد تولى إدارة الفرقة القومية زهاء سبع سنوات .

ولا يهمنا فى دراسة خليل مطران تلك الدراسة العاجلة إلا الناحية الشعرية منه وإن كانت آثاره جميعاً جديرة بالدراسة العميقة. خليل مطران صاحب مدرسة حديثة فى الشعر العربى ، فهو أول شاعر ثار على أساليب المدرسة التقليدية ، وجاهر بمذهبه الجديد فى الشعر ورأى أنه المذهب الذى سيسود فى شعر المستقبل حينما أصدر ديوانه الأول ؛ لأن هذا الشعر كما قال « شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً » .

نهج خليل مطران نهجاً جديداً فى نظم الشعر ونادى بمذهبه حيث قال « اللغة غير التصور والرأى . وإن خطة العرب فى الشعر لا يجب حتما أن تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا ؛ ولهذا وجب أن يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم ، وإن كان مفرغاً فى قوالبهم محتذياً مذاهبهم اللفظية » . بهذا الرأى الجرىء الغريب نادى خليل مطران ودعا إليه ؛ بينما كان شعراء مصر فى ذلك الحين يتورطون فى شعر المديح والتهانى يرفعونه إلى السدة العلية والأعتاب السنية

ومن هنا كان شعر مطران ومذهبه فى النظم نقطة تحول فى تاريخ الشعر العربى وانقلاباً بعيد المدى ، فهو بحق شاعر العربية الإبداعى ، يمر شعره على أوتار القلوب فيحركها ويهز الوجدان ويثير العواطف .

« فمطران أول من عمل على إخراج الشعر العربى من نطاق الذاتية والفردية إلى باحة الموضوعية وميدان الحياة . وهو أول رائد خرج على الطريقة الاتباعية الكلاسيكية إلى الطريقة الابتداعية الرومانتيكية) وإن ساير الاتباعية غالباً فى الأسلوب . وهو أول من أثر فى شعراء الشرق سواء باتجاهاته أو شاعريته » . ولعل السبب فى ثورة مطران على الطريقة التقليدية فى نظم الشعر هو أن هذه الطريقة وذلك اللون من الشعر التقليدى أصبح لا يعبر عن العواطف تعبيراً صادقاً ولا عما يختلج فى النفس من أحاسيس ، وزاده إيماناً بذلك ثقافته الأجنبية ولا سيما فى الآداب الفرنسية وهى أغنى الآداب الأوربية بالشعر العاطفى الوجدانى ذى النزعة الإبداعية . لذلك لم يكن غريباً أن ينبذ مطران المدرسة القديمة العتيدة ولها أنصار كثيرون فى مصر ، ويأخذ بالمدرسة الحديثة فى نظم الشعر . ونلاحظ هنا أن كثيراً من الشعراء الذين أخذوا بهذه المدرسة الحديثة ونهجوا نهج مطران فى الشعر بالغوا إلى أبعد حدود المبالغة وأصبح الواحد منهم على حد قول محب الدين الخطيب : « يظل يومه يسطو على منظومات الإفرنج يستل منها معانيها الغريبة عن الأذواق العربية فيصوغها بألفاظ وتراكيب يلعن بعضها بعضاً ! ! فلا يفهم منها القارئ العربى إلا بقدر ما أفهم أنا من الصينى ! ! » أما خليل مطران فهو وإن تأثر بالآداب الافرنجية لا يزال عربياً خالصاً فى أسلوبه وتعبيره وصيغه ، ولعل ما أدخله على الطريقة التقليدية فى الشعر العربى هو التجديد الطريف فى المعانى والأخيلة والموضوع . وقد ذكرنا أن مطراناً نفسه قال : « ... وجب أن يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا وإن كان مفرغاً فى قوالبهم (أى قوالب العرب) محتذياً مذاهبهم اللفظية » .

فمطران إذن عرف كيف يستفيد من الثقافات الأجنبية دون تقليد ، وأن ينتهج نهج قدماء العرب دون تقييد ، فاحتفظ بصيغة العرب فى التعبير ، وأدخل أساليب الافرنج فى التأليف والتفكير .

ومن هنا نجد الفرق الشاسع بين هؤلاء الشعراء الذين يدعون « التجديد » وبين إمام المجددين خليل مطران .

وقد أدخل مطران على الشعر العربى لوناً طريفاً من ألوان التجديد وهو الشعر القصصى . وقد ثار البحث بين الأدباء عما إذا كان

للعرب شعر قصصي أم لا . وأخذوا يتلمسون ذلك اللون في الشعر العربي القديم ؛ ولكنا نستطيع أن نجزم أنه قبل مطران لم يكن للشعر القصصي مكان في العربية . فطران أول شاعر نظم شعراً قصصياً بالمعنى المعروف . ولا شك أن هذه النزعة في شعر مطران تساير نزعته الإبداعية في سائر فنون الشعر التي نظم فيها . ولعل من روائع هذه القصص الشعرية قصيدة « الجنين الشهيد » التي لا مثيل لها في الشعر العربي ، وقصيدته « فتاة الجبل الأسود » و « المصفور » و « فنجان قهوة » و « نيرون » التي تعد من عيون الشعر القصصي .

ومطران واقعي في قصصه الشعري لا يحلق به الخيال في آفاق مفقودة بيننا في الحياة العادية ، ولكنه يستلهم الحوادث المألوفة لنا في الحياة الواقعية ويفرغها في قالب قصصي رائع بديع .

وقصصه الشعرية تستأهل دراسة مستفيضة منفصلة من باقي شعره ؛ ذلك بأن القصص هو العنصر الفذ الذي قامت عليه شاعرية مطران .

وللخليل مطران « تجارب شعرية » رائعة إمتاز بها على المعاصرين من شعراء العصر الحديث ، نذكر من هذه التجارب الشعرية قصيدته الرائعة « المساء » وقصيدته « الحامتان » وقصيدته « الشمس والنبتة » وقصيدته « بدرى وبدر السماء » التي خلع فيهـا على أحداث الطبيعة سمات البشرية .

ويلاحظ في شعر مطران ظاهرة واضحة هي أنه لا يعنى بالبيت منفرداً كما هي عادة العرب حيث « ينفرد كل بيت من القصيدة بإفادته في تركيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وعما بعده » وإنما يعنى مطران بالوحدة الفنية في القصيد كله ، ولذلك نشعر بانسجام تام وتسلسل بديع إذا قرأنا له قصيدة من قصائده الوجدانية جملة واحدة بينما يفسد ذلك تجزئة القصيدة كما تنال من الوحدة الفنية فيه .

أما عن الخيال عند مطران فإن نشأته بين الخضرة والماء والصخور في ربوع الشام وجبال لبنان ، ثم في ربوع الوادي وربى الأهرام ، فتق خياله عن معان عبقرية رائعة . استمع إليه من قصيدة يستقبل بها الشام :

هذى رؤوس القمم الشماء … نواهضاً بالقبـة الزرقاء
نواصع العمائم البيضاء … روائع المناطق الخضراء
ياحسن هذي الرملة الوعساء … وهـــذه الأودية الثناء
وهـــذه المنازل الحمراء … راقية معارج العـــلاء
وهذه الخطوط في البيداء … كأنهـــا أسرة العذراء
وذلك التدبيج في الصحراء … من كل رسم باهر للرائي
مشوش النظام في جلاء … متسق بالحسن والرواء
وهـــذه المياه في الصفاء … آناً وفي الإزباد والإرغاء
تنساب في الروض على التواء … خفيـة ظاهرة اللألاء

وهذه القصيدة كما يقول الأستاذ الدكتور إسماعيل أدهم في بحثه القيم عن مطران « تلمس فيها طبيعة الشام وتستحضر في ذهنك صورة محسوسة بين يديك منها » . وكما يقول المنفلوطي الكاتب الوجداني « يكاد يلمسك خياله ويسمعك رنين أوتار قلبه » . وذلك لأن نفس الشاعر كالمرآة الحساسة ينطبع عليها كل ما يمر بها ولذلك كان الخليل شاعر الشعور والخيال .

ومن روائع شعره قوله في قصيدته الخالدة « المساء » :

يا للغروب وما به من عبرة … للمستهام وعـــبرة للرائي
أوليس نزعاً للنهار وصرعة … للشمس بين جنازة الأضواء !
والشمس في شفق يسيل نضاره … فوق العقيق على ذرى سوداء
مرت خلال غمامتين تحدرا … وتقطرت كالدمعة الحمراء !

وهذا من رائع الوصف ورائق الشعر العربي :

وجمل القول في مطران أنه أول شاعر إبداعي عرفته العربية . وقد أثر إلى أبعد حدود التأثير في الشعر العربي بمدرسته الحديثة التي أخلص لها وغذاها بروائع شعره الإبداعي والقصصي فالتف حوله جمهور من شباب الشعراء والأمل معقود عليهم في أن يحملوا مشعل الإبداعية في مصر بعد أن رفعته يد مطران نصف قرن تقريباً .

رابح لطفي جمعة

مراجع البحث :

بحث الأستاذ الدكتور إسماعيل أدهم عن « خليل مطران شاعر الإبداعية » في المقتطف سنة ١٩٣٩ .

شعراء مصر للاستاذ عباس محمود العقاد .

كتاب « نقد الشعر المعاصر » للاستاذ مصطفى السحرتي .

كتاب « رواد الشعر الحديث » للاستاذ مختار الوكيل

مقال للاستاذ سلامة موسى عن خليل مطران في مجلة الهلال .

مجلة الزهور .

ديوان الخليل .

كتاب « شوقي » للامير شكيب أرسلان .

مصطفى كمال الزعيم التركي

بقلم الكونت سفورزا وزير خارجية إيطاليا

الأستاذ أحمد رمزي بك

— ٢ —

كان مصطفى كمال يتمتع بعد الحرب العظمى بشهرة عامة في بلاده باعتباره بطلا من أبطال الجندية التركية الذين أبلوا بلاء حسناً في معارك الدردنيل ، وقد اعتقد الباب العالي إبان هذه الحوادث أن في بقائه باستنبول خطراً على الحالة السياسية الداخلية ، ولذلك أسندت إليه وظيفة عسكرية لإقصائه إلى داخلية الأناضول، وكانت رغبتهم في التخلص منه كبيرة لدرجة أعمتهم عن تقدير ما في عملهم هذا من أن البعد سيكون أشد خطراً في آسيا منه في العاصمة . وقد علم مصطفى كمال بخبر احتلال أزمير وعوفي بسون فكان وقعه شديداً عليه ، ولذلك جمع أهالي هذه المدينة وألقى عليهم خطاباً حماسياً من أشد الخطب التي ألقاها في حياته ، فأسرع الضابط البريطاني الذي كان مكلفاً من قبل القيادة العامة بمراقبة أحوال وسير الولاية في إرسال برقية إلى استانبول يطلب فيها استدعاء هذا الضابط المهيج للخواطر .

وهنا قررنا بناء على إلحاح المندوب السامي البريطاني التدخل بطلب استدعائه فقبل الباب العالي ذلك ، ولكنه لاعتياده الأساليب البيزنطية لم يستدعه نهائياً ، وإنما طلبه لأخذ آرائه واستفتائه في مجرى الأحوال العامة ، وقد بادر أصدقاؤه القيمون باستانبول إلى تحذيره من هذه الدعوة ، فقرر عدم إجابتها وتنصل منها بسفره فجأة إلى أرضروم محتجاً بأن الاستدعاء الرسمي وصل متأخراً بعد قيامه .

لقد كان من الممكن إنقاذ الحالة بعمل سياسي قاطع ، وكنت الوحيد بين المندوبين السياسيين الذي أبلغ حكومته وأبلغ مجلس الأربعة بباريس أن الحالة تستدعي قراراً حاسماً بعرض صلح عادل يسلم ببعض مطالب تركيا مع المحافظة على المزايا والمصالح الأجنبية التي يجب التمسك بها في أراضيها . أما حكومة الباب العالي ، فقد بدأت تتردد في قراراتها وتبدو عليها مظاهر الضعف التي هي عوارض كل نظام انتهى دوره .

***

وبعد مضي أسبوعين على احتلال أزمير طلب مني الصدر الأعظم مقابلة خاصة سرية ، فقابلته في مصيف السفارة الإيطالية بطرابيا على البوسفور ، حيث أسمعني حديثاً منمقاً بالجمل التي كالها في مدح إيطاليا وما تتمتع به من المحبة في القلوب ، ثم شكى إليَّ بشدة من وقع القرار الذي أصدره مؤتمر الصلح بالتصريح لدولة كانت في القريب تحت حكم الترك لتحتل جزءاً من وطنهم ولتستعبد وتدوس حقوق أحفاد أولئك الذين كانوا سادة لأجداد رعايا هذه الدولة . ثم قال :

— ألا يفهم رجال باريس أن هذه هي الطريقة الوحيدة لإحياء روح الكراهية ، وإنه إذا قامت يوماً ما مذابح من جراء اتباعكم هذه السياسة سيكون أول عمل لكم اتهامنا بها كما حدث في المائة السنة الماضية من إلصاق تهم المذابح دائماً بالترك . أني أرى من واجبي تنبيهكم إلى ذلك ، وتحميلكم من الآن مسئولية ما يحدث في المستقبل .

ثم التفت إلي كمن يريد أن يبوح بسر خاص قائلا :

— من المسلم به أنه لن يكون هناك موضع لهذه المخاوف لو كانت تقدمت دولة عظمى من الدول المحبوبة للترك وأخذت على عاتقها احتلال أزمير وولايتها .

قال ذلك منتظراً إجابة مني لم يظفر بها مدة العشر دقائق التي دامت فيها محادثتنا ، والتي توقعت في خلالها ما يريد أن يقول ، وأخيراً ألقى كلمته قائلا :

— لماذا لا تطلب إيطاليا عمل استفتاء بين أهالي ولاية أزمير الذين يفضلون بالإجماع أن يروا إيطاليا تحتل بلادهم بدل اليونان ؟

كان فريد في ذلك مقلداً للسياسة القديمة التي اتبعها وأتقنها عبد الحميد ، واستعملها لمدة ثلاثين عاماً ضد أوربا بحرك الغيرة بين دولها ، ويشجع أطماعها ، ويزيد في شقة اختلافها ، حتى يضمن بقاء استقلال بلاده . ولكن هذه السياسة كانت علاجاً مسكناً نجح في وقته ؛ أما الآن فقد انتهى ذلك العهد ، ومن

جهتي لم أكن واثقاً من نجاح مشروع كهذا بفرض التسليم بإمكان وقوعه ، ولا واثقاً من فوائده لإيطاليا ، لأن مصلحتها هي في اعتبار كل تركيا سوقاً لمصنوعاتها . أما أزمير وولايتها ، فلا تصلح لنا كبلاد لتشجيع هجرة الإيطاليين إليها ، لأن أهاليها أكثر انتشاراً وتناسلا من الإيطاليين أنفسهم ، ثم احتلالها مع كثرة ما سيتطلبه من التكاليف سيكون عقبة في سبيل التوسع السلمي التجاري ، ذلك التوسع الذي كنت أعلق على تنفيذه أهمية خاصة .

أما الاعتراف لنا بالجميل ، فكان من الظاهر أنه ينتهي بعد مضي شهر من رحيل اليونان ، بل وينقلب إلى كراهية إذا أقمنا هناك .

كانت تجول بمخيلتي هذه الأفكار وقت حديثي مع القاماد ، ولم أشأ أن أبوح له بشيء منها ، ولكنه أخذ صمتي كأنه تحوط دبلوماسي وخرج من عندي مقتنعاً بأنه وجه طعنة قوية إلى صلب الاتفاق السياسي القائم بين الحلفاء .

ولكن الأخبار تتسرب بسرعة غريبة في الشرق ، حتى ما يقال في السر بين رجلين تتناقله الآذان ، ويذاع بين الناس كأنه قد ألقي من على منابر المجالس النيابية في أوربا . وبالفعل انتقلت فكرة القاماد إلى آذان مصطفى كمال وأعوانه ، لأن أحد رجاله حضر إلي وخاطبني بكل احترام قائلا : إن أصدقاءه — ويريد بذلك مصطفى كمال — يؤملون مني ألا أشجع من جهة مشروع الباب العالي ، لأن تركيا الحديثة ترى من واجبها أن تحارب إيطاليا بنفس الشدة التي تحارب بها اليونان إذا طمعت في شطر من أراضيها .

ولم يكن في وسعي إلا أن أعجب — في داخل نفسي — من صراحة هذا القول ، وأرى فيه فتحاً جديداً في السياسة الشرقية لم نكن نحن في أوربا نعتاد سماعه .

* * *

وبمضي الزمن انتهى كل من زميلي الأميرال كالثروب والأميرال ادميت ، رغم الروح الحربية المتغلبة عليهما ، والتي اعتبرها طبيعية واحترمها في الوقت نفسه ، إلى التسليم بأني لم أكن بعيداً من الصواب في إبداء رأيي بخصوص التعجيل بالصلح . ولكن الوصول بهما إلى الدفاع من هذا الرأي أو زعزعة الفكرة السائدة لديهما كان صعباً على عقلي رجلين خرجا من الحرب وكانا لا يزالان واقعين تحت تأثير ثورة القتال . ولكم من مرة طرق بالهما أنني رغم ضعف مركزي باعتباري رجلا ملكياً (غير جندي) لم أتأخر عن تبليغ ما أعتقد أنه حقيقة ملموسة إلى علم حكومتي .

ولكن ما فائدة أي نصيحة يبديها الآن المندوب السامي البريطاني لحكومته إذا كان تأثيرها يضيع بجانب تقارير ضباط قلم الاستخبارات الذين كثر عددهم وكثرت بالتالي تقاريرهم إلى لندرة . وأصبح أسلوبهم بعيداً عن التقاليد البريطانية الأولى المرونة بنزعتها إلى التسامح وطول الأناة ؛ فكثرت أغلاطهم في جو العاصمة التركية الذي استوعب في السابق دهاء الدبلوماتية الغربية وصبر رجالها . لقد جاء أسلوبهم هذا ليعمل على ضياع الهيبة التي كان الدبلوماتيون الغربيون يتمتعون بها في نفوس الشرقيين ، إذ من الخطأ البين الاعتقاد بأن اليد القوية واستعمال العنف هي السياسة الناجحة في الشرق .

وقد كان يصعب على مثلي — الذي بدأ حياته السياسية في القاهرة ، وقدر عمل أمثال كرومر وونجت ، وأعجب بالتقاليد البريطانية في تسامحها وتمسكها بالحرية والعدالة — أن يسمع وهو متأثر صديق طلعت باشا يقول بلهجته التهكمية ، والابتسامة على شفتيه عن بريطانيا :

— هي ألمانيا فقط تنقصها الدقة والضبط الألمانيين .

مثال ذلك حوادث بوليس الحلفاء باستانبول ، وبعضها جدير بالتدوين ، لأنه في صباح أحد الأيام أخبرنا أننا قد نجونا من مؤامرة خطيرة كانت تدبر في الخفاء ضد الحلفاء ، ولم نصدق نحن — لأول وهلة — هذه الأخبار . ولكن الجنرال البريطاني قرر العمل بسرعة بمجرد علمه بخبرها ، وقدم كشفاً إلى السلطات التركية يحتوي على أسماء المتآمرين وطلب القبض عليهم . وكان في الكشف ثمانية وعشرين اسماً بينهم أحد عشر شخصاً منهم يشتغلون بالسياسة ويقيمون فعلا بأنقرة ، أي بعيدون من متناول السلطات ؛ والباقي سبعة عشر اسماً لأشخاص غير معروفين يصعب العثور عليهم ، إذ يتعذر بطبيعة الحال القبض على مثل علي أو أحمد

في مدينة كبيرة مترامية الأطراف مثل استانبول .

والأغرب أن السلطات التركية لم يبد عليها أى انزعاج ، بل قدمت تهانيها للجنرال ، لأن رجاله تمكنوا من اكتشاف هذه المؤامرة الخطيرة ؛ وفعلا وعدوا بتسليم المتآمرين ونفذوا ذلك بالقبض على عدد ممن يدعون على وأعدم جموع من أحياء غلطة واستانبول ممن لا شأن لهم وأعدموهم شنقاً . فاكتفى الجنرال بذلك وأعلن رضاءه وسحب تهديداته ...

وقد علمت بعد ذلك أن هذه المؤامرة الموهومة وضع شباكها بعض الترك وأدخلوها على رجال قلم الاستخبارات للانتقام من بعض مواطنيهم ، وكان كل ذلك مدعاة للتسلية والتهكم إذا استثنينا حادث شنق الأفراد الذين ذهبوا ضحية هذا التلفيق وهم أبرياء .

إن الأخطاء التي ترتكب في سياسة أى دولة تضطر هذه الدولة أن تدفع ثمنها في الغالب غالياً . وكذلك كان الحال مع دول الحلفاء في تركيا ، لأن الزعيم التركي وأنصاره لم يجدوا بداً بعد كل هذه الحوادث من المجاهرة بعدائهم ضد الإنجليز والفرنسيين واستثنوا الإيطاليين فقط من ذلك . فما كان من الإنجليز إلا أن ازدادوا تمسكا برأيهم وأرادوا أن يؤثروا في الترك باتخاذ هذه الطرق الشديدة .

أما الزعيم التركي ، فقد باشر القتال بعصابات مسلحة تحميها قوات من الجيش المنظم الذي بدأ ينظمه في الداخل بإرادة تشهد بعبقريته المنظمة .

وبقدر ما كانت تزيد قواته المنظمة بقدر ما اتجه الناس إليه ، حتى أن موظفي حكومة الباب العالي لم يعودوا يخفوا إعجابهم به وشعورهم نحوه .

وهكذا فهم الترك أن الزمان حليفهم ، وأن حل المسائل المعلقة بأيديهم .

***

بقيت أمامنا بعد هذه الحوادث مسألة واحدة موضعاً للتساؤل، وهي ماذا ينوي الحلفاء عمله بعد أن صدقوا في المؤتمر الذي عقد في سان ريمو في إبريل سنة ١٩٢١ على الشروط القاسية التي وضعت في لندرة ؟

لقد وقف اللورد كيرزون عند افتتاح جلسات المؤتمر يقول : « إنه قد بولغ كثيراً في تقدير القوة التي لدى الكماليين ، وليس مصطفى كمال بالعامل المهم الآن كما يحاول إظهاره بعض السياسيين »

وكنت طبعاً المقصود بهذه الإشارة ، لأنني داومت من روما حيث كنت أقيم في ذلك الوقت على إسداء النصيحة بعرض صلح مقبول على تركيا .

وبعد انفضاض مؤتمر سان ريمو الذي انتصرت فيه السياسة الإنجليزية على فرنسا وإيطاليا تابع لويد جورج التمسك بخطته التي سار عليها ، وجاهر بثقته بها في خطبة رنانة ألقاها بلندرة في شهر يونية حيث قال : إن اليونان هي الدولة الوحيدة القادرة على تأخذ مكان الحكومة التركية في آسيا الصغرى .

وفي اجتماع هيث Hythe حيث التقى لويد جورج بميليران عرض فنزيلوس على انجلترة فكرة تعاون حكومته باستعمال الجيش اليوناني في تأديب الكماليين . وكان اقتراحه يرمي إلى توجيه قوات مشكلة من ٩٠٠٠٠ جندي يوناني مزودين بأحدث الأسلحة للقيام بحركة سريعة إلى وسط الأناضول لقطع كل اتصال بين الكماليين والساحل تلجئ الأخيرين إلى التقهقر إلى الداخل ، حيث يكون مصير قواتهم الانحلال والتشتت .

وكان ميليران على عزم ما في هذا الاقتراح الإنجليزي اليوناني من المجازفة والأخطار ، ولكنه فضل التسليم به رغبة منه في استبقاء مودة لويد جورج ، وهو في حاجة إليه لتعقد الحالة على نهر الرين .

أضف إلى هذا أن نشاط الترك كان كبيراً في هذا الوقت على حدود سوريا ، حيث سببوا لفرنسا مشاكل لا يستهان بها .

ولكن الوزيرين كانا في حاجة إلى موافقة إيطاليا حتى تأخذ هذه التصميمات صبغتها الدولية ؛ فعقدا مجلساً لهذا الشأن بعد عدة أيام من هذا التفاهم اختاروا له مدينة بولونيا وحضره نائباً عن إيطاليا بصفتي وزيراً للخارجية ، وما أن عرضت فكرة حملة الأناضول حتى بينت لهما بشكل قاطع أوجه الخطأ في تنفيذ هذه الخطة التي لن يتحقق بها تشتيت القوات التركية ، بل تؤدي حتماً إلى إذكاء الروح الحربية وتقوية عوامل القتال والوطنية لدى الأتراك

وفي مدينة أسبا Spa حيث عقد مؤتمر آخر كنت أشد تمسكا بهذا الرأي ، ولكن المؤتمر قرر قبول اقتراح فنزيلوس لسوء حظ الشعب اليوناني .

(البقية في العدد القادم) أحمد رمزي

مالتوس
ومشكلة السكان في مصر
للأستاذ محمد محمد علي

يعتبر مالتوس أشهر من كتب في مسألة السكان، إذ أثار الرأي العام في بلاده وفي البلاد الأخرى، كما نبه الأذهان إلى ضرورة دراسة السكان، فهي أساس المشكلات الاجتماعية.

وقد ألقى مالتوس ضوءاً جديداً على مسألة السكان وقد أثار هذا جدلا واختلافاً في الرأي. ولعل ما يعنينا في مصر هو معرفة الحد الذي تتحقق عنده آراء مالتوس في مشكلة السكان في مصر. والوصول إلى ذلك يجمل بنا أن نعرض آراء مالتوس ونظريته في السكان، ثم نلخص النقط الأساسية في مشكلة السكان في مصر.

* * *

هنالك دوافع ثلاثة حفزت مالتوس إلى وضع كتابه المشهور: هي حياته وثقافته، والعصر الذي عاش فيه، ثم آراء معاصريه. فقد كان أبوه صديقاً لجان جاك روسو، ونشأ في بيت تسوده المحافظة على التقاليد، لذلك كان لا يعتقد في إمكان إصلاح المجتمع عن طريق الثورة. وفي كمبردج جعلته حياته الدينية يؤمن بملازمة الألم للانسان بسبب وجود الغريزة الجنسية وغريزة البحث عن الطعام.

وكان للعصر الذي عاش فيه أكبر الأثر في تكوين آرائه، ووضع نظريته؛ إذ كانت أوربا — في أواخر القرن الثامن عشر — في حالة سيئة نتيجة الثورة الفرنسية، وانجلترا كانت تسودها أزمة اقتصادية واجتماعية، فقد ساء المحصول الزراعي في الريف. وكانت الصناعة تتقدم تدريجياً وزاد السكان تبعاً لذلك، وحالت الضرائب ورسوم الجمارك دون ازدياد موارد الغذاء. كما نتج عن الاختراعات لتحسين الآلات الاستغناء عن كثير من العمال فانتشرت البطالة وعم البؤس مما أثقل كاهل الفقراء.

وكان من نتيجة كل ذلك ظهور آراء فوضوية بغية الإصلاح. وكان من زعماء الحركة الاشتراكية حينئذ: جودوين الذي كتب بحثاً في العدالة الاجتماعية، وكان يعتقد في طبيعة الخير التي تنطوي عليها البشرية؛ وكندورسيه وكان يرى أن الإنسانية تسير نحو الكمال في عشر مراحل وأنها كادت تبلغ ذروة الكمال في عهده.

إذن فالظروف التي سادت في عصره أوحت إليه بالتشاؤم فأراد أن يحذر مواطنيه من سوء العواقب. ثم إن آراء معاصريه لم ترقه فرغب في أن يرد عليهم. لذلك وضع مالتوس كتابه وظهرت الطبعة الأولى عام ١٧٩٨ بعنوان طويل اختصره في الطبعة الثانية عام ١٨٠٣ ويبحث الكتاب في أربعة موضوعات:

العقبات التي تعترض زيادة السكان في الأزمنة الغابرة. ثم العقبات التي تعترض زيادتهم في الأمم الحديثة. ثم دراسة النظم المقترحة لعلاج أضرار زيادة السكان، وأخيراً عرض لآرائه ومقترحاته.

وتتلخص نظريته في السكان في نقط ثلاث:

١ — إن عدد السكان يحدد بالغذاء، فهنالك علاقة بين عدد السكان وكمية القوت.

٢ — يزيد عدد السكان كلما زاد القوت إلا إذا وجدت عقبات قوية.

٣ — هذه العقبات التي تجعل ازدياد السكان متناسباً مع الغذاء هي البؤس، أي المجاعة والحرب والأوبئة، والرذيلة أي الخيانة الزوجية والعلاقات الجنسية الفوضوية؛ والضابط الأخلاقي أي تأخير الزواج مع حياة العفة. وهذا العامل الثالث أضافه في الطبعة الثانية بعد إذ اتهمه الناس بالكفر لظنهم أنه إنما ينسب البؤس والرذيلة إلى قوة إلهية.

فمالتوس يرى أن المجتمع الإنساني كالكائن الحي في حاجة دائمة إلى الغذاء. وأن من العبث معالجة الفقر بالتوزيع العادل للثروة. وينسب الفقر في المجتمع إلى اختلال التوازن بين عدد السكان وموارد الغذاء، على أن السكان يزيدون على حسب متتالية هندسية والغذاء طبقاً لمتتالية حسابية. لذلك يتضاعف عدد السكان كل ربع قرن: ما لم تكن هنالك ضوابط إيجابية أو مانعة. ولم يناد مالتوس بضبط النسل بل نادى بالضابط الأخلاقي.

* * *

هذا عرض عام لآراء مالتوس والظروف التي أحاطت به حين

تأليف كتابه . أما عن مشكلة السكان فى مصر ، فقد تحدثت عنها بإيجاز فى مقال سابق[١]. وأساسها ازدياد عدد السكان زيادة لا تتناسب مع زيادة الموارد الغذائية ، وسوء توزيع الثروة ، وإحجام أصحاب الأموال والشباب عن خوض غمار الصناعة واستغلال الثروة المعدنية . والآن يمكن أن نتبين مدى تحقق آراء مالتوس فى مسألة السكان فى مصر :

لم يتضاعف عدد السكان فى ربع قرن بل تضاعف فى نصف قرن . وقد يكون هذا راجعاً إلى الضوابط الإيجابية وهى البؤس والرذيلة .

وزاد السكان زيادة خطيرة فى حين أن الغذاء زاد زيادة بسيطة. وهنا يحسن ألا ننظر إلى المسألة بعين مالتوس ، فقد قامت الصناعة فى مصر وبدأت تزدهر منذ ربع قرن وذلك بفضل عاملين : الحرب العالمية الأولى ، والتعريفة الجمركية وحمايتها الصناعة المحلية . وليس من شك فى أن العامل الصناعى يعيش فى مستوى أرفع وأرقى مما يعيش فيه العامل الزراعى ، وأوضح دليل على ذلك تكوين النقابات العمالية واهتمام الحكومات بالعامل الصناعى وخاصة فى (وضع الكادر) والتأمين الاجتماعى ... ومما يبعث على الأمل إمكان ازدهار الصناعة المصرية فى المستقبل ، وغنى مصر بثروتها المعدنية ، وما سيحدثه من تغير عظيم مشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان .

ومن الصعب تنفيذ الضابط الأخلاقى فى مصر فى ظل المدنية الحديثة وما فيها من مباهج و ... حقاً يعمد الشباب إلى تأخير الزواج لدوافع اقتصادية واجتماعية ، ومن جهة أخرى يستخدم ضبط النسل بنجاح بين الطبقة العليا والمثقفة .

أما توزيع الثروة توزيعاً عادلا فهذا ليس من العبث كما قرر مالتوس فليس بعيب ثروة مصر كميتها بل توزيعها . إذن لم تتحقق آراء مالتوس كاملة كاملة :

ويرى الدكتور وندل كليلند حلاً لمشكلة السكان فى مصر بما يأتى :

١ — العمل على زيادة الموارد الطبيعية زراعية وصناعية .

٢ — تحديد عدد السكان ، بوسائل ضبط النسل .

ويظهر لنا من كتاباته أنه يحبذ الاتجاه الثانى لأنه لاحظ أن التقدم الحضارى فى أوربا يصحبه نقص فى المواليد ، وذلك لزيادة رغبة الناس فى صحة أحسن وسعادة أعظم وثقافة أرقى ورغبات أسمى ، ولكن تحديد النسل من الصعوبة بمكان تبعاً للتقاليد والعادات والأفكار القديمة .

ولعل من المفيد أن أختم هذا المقال بما اختتم به كليلند كتابه[١] إذ يقول :

إن موقع مصر الجغرافى يجعل من الصعب عليها أن تحل مشكلاتها وحدها بل لا بد من التعاون مع جاراتها ، ذلك لأن النيل دولى : Nile is international

محمد محمد على
ليسانسيه فى الآداب

(١) حول مشكلة السكان فى مصر : الرسالة عدد ٨٢٤ .

(١) The Population Problem in Egypt, 1936

من أدب رمضان

للأستاذ أحمد مصطفى حافظ

« ... رياضة لمن يتجرد ، وتقاوة للروح بالتأمل ، وتوثيق لما وهى بين القلب والدين ، وتقريب لما بعد بين الرائد والسكين ... ونفحة من نفحات السماء تعم دنيا المسلمين بفيض الخير وأنفاس الملائكة ! ... فالبيوت الباقية على العهد تتقرب إلى الله بالذكر والصدقات ، والمساجد المقفرة طول العام تعج بالوعظ والصلوات ... والمآذن الحالية بالمصابيح الشادية بالتسابيح ترسل في أعماق الأبد نور الله وكلمته ! »

« الأستاذ أحمد حسن الزيات »

عن ابن عجير ، قال : أصاب النبي صلى الله عليه وسلم جوعٌ يوماً ، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ، ثم قال : « ألا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا رب مكرم نفسه وهو مهين لها ! ألا رب مهين نفسه وهو مكرم لها ! »

فانظر — عافاك الله — إلى إنسانية سيد الخلق العليا ، فهو يضرب أروع الأمثال لكي تتأسى به أمته من قبل ومن بعد ... وهو الذي خُيِّر أن يكون له مثل (أحُد) ذهبا فقال : (لا يارب ، أجوع يوماً فأدعوك ، وأشبع يوماً فأحمدك !) فالسواد الذي تراه في فقره صلى الله عليه وسلم هو السواد الحي ، سواد الليل حول الروح النجمية الساطعة ، كما يقول الرافعي الخالد . وبعد فالغرض الأسمى من صوم رمضان المبارك إن هو إلا العمل المصمم على إضعاف الحيوانية ، وكسر شرة الهوى ، وكفكفة النفس عن الشهوات والأهواء ، بالحرمان والمجاهدة فتتحرر الروح من ربقة الأسر في الجسد ، وتتطهر من الأدران المخجلة ، وتسمو إلى مراتب الإيمان العالية ... فتهتدي إلى جلال ربها ، وتدرك ما كانت عليه من زيغ وغفلة ، فتتذكر الموت وهوله ، والقبر وسؤاله ، والبعث وأهواله .. فتخشع وتخضع وترجع إلى طاعة ربها راضية مرضية ...

ما لذة الأيام تتعاقب على استواء حالة واحدة ؟ ... بل كيف يصمد المرء إزاء الدهر وتقلباته ، وضرباته وهجماته ... إن لم يتزود بذخيرة من الصبر والجلاد ؟ ...

ولقد فاضت كتب الدين ، وخطب المصقعين ، تحض على التآلف والإخاء ، والتمسك بأهداب الشرائع السماوية المقدسة ، ولكن كل ما كان ويكون لهما من أثر لا يقاس بأثر الردع والتأديب الإلهي ، الذي تحس وقعهما في أعصابك وحلقك وأحشائك ... وسعار الجوع هو الذي يدع الخيال يصنف للمعدة صنوفا متجددة متعددة للطعام ... فلا تنفك تستشعر — على التصور — آلاماً لذيذة ، ولذات أليمة ! ...

وليس يُطرب صوت الماء منحدراً
كما ترى وقعه في سمع ظمآن !

وترى الغني المترف المتنعم وقد ردعه الضمير ، وأدبه الدين .. فلديه ما لذ وطاب ولكنه يصبر ويصابر ، ويتذكر أنه يُسأل عن النعيم ...

ولا صيام للنمامين والمغتابين ؛ فعن ابن مسعود ، قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقام رجل ، فوقع فيه رجل من بعده ... فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تخلَّلْ » قال : مِمَّ أتخلَّلُ ؟ ما أكلت لحماً ... » قال : « إنك أكلت لحم أخيك ! » ...

(السويس) أحمد مصطفى حافظ
محرر بمجلة المدينة المنورة



نظـــرات فى الفن

للأستاذ نجم الدين حمودى

الفنان والطبيعة :

علاقة الفنان بالطبيعة علاقة متينة محكمة ، فهى مصدر وحيه وإلهامه ، منها يستقى عبقريته ، ومن جمالها يروى أحاسيسه ومشاعره . ومع أن الطبيعة ينبوع الجمال وموطن الروائع ، فهى ليست كل شىء عند الفنان ، كما أنه من العبث أن نشبه الفن بتقليد الطبيعة ، أو محاكاة الجميل فيها ، إذ ليس الفن تقليداً وتشبيها ، وإنما هو تفسير وتحليل وخلق وإبداع . وليس من المبالغة فى شىء أن يقال : يبتدئ الفن عند ما يتحرر الفنان عن التزامه لتقليد الطبيعة .

نعم ، إن الطبيعة مصدر للجمال ولها أعظم الأثر فى عمل الفنان ، إلا أنها — كما ذكرنا سابقاً — ليست كل شىء عنده . فالفنان فى روائعه يضفى على الطبيعة من أعماق نفسه جمالا يزيد من جمالها ، وألواناً من خلقه وإبداعه تكسبها جاذبية وتأثيراً .
وإذا كانت السمفونية الريفية لبيتهوفن قطعة فنية رائعة ، فهى ليست كذلك لكونها تقليداً لأصوات طبيعية ، بل لأن بيتهوفن نفسه استطاع أن يعبر فيها عن إحساسات تفتحت من جراء اتصاله وانتباهه بجمال الطبيعة ، وتمتعه بنغمات أصواتها الجميلة العذبة ، فخرجت تلك الإحساسات ، وتفجر ذلك الشعور إلى عالم الواقع بأصوات موزونة ونغمات منسجمة ، وبهذه النغمات وتلك الأصوات برزت عبقرية الفنان وقوة خلقه وإبداعه ، فجعل من توفيقه بين هذه وتلك قطعة موسيقية رائعة تتوق القلوب لسماعها ، وترتوى النفوس من أنغامها وألحانها .

فالابتهاج الذى يغمرنا عند سماعنا للسمفونية الريفية ، والروعة التى برزت بأجلى مظاهرها فى أنغامها المنسجمة الموزونة ، لا يرجعان كلية إلى الطبيعة ، بل إلى عبقرية بيتهوفن وملكته الفنية .

يشير الأديب الفرنسى أندريه جيد فى دراسته للفنان الفرنسى بوسان إلى رأى الكاتب كريستفر مارلو عن أثر الطبيعة فى نضوج الفنان فيقول : « يثبت الأستاذ مارلو بأن الباعث على الخلق الفنى فى كل الرسامين لا يتأتى مباشرة من الطبيعة ، وإنما يتأتى من بعض الروائع الفنية التى أنتجها قبلهم عظماء الرسامين الذين حققوا فى روائعهم ما فى الطبيعة من جمال وفتنة وكمال » .
ويعلق الأستاذ أندريه جيد على ذلك بقوله : « لا شك أن جمال العالم الخارجى ومظاهره البديعة الجذابة لا يمكنها أن تترك بوسان دون أن تؤثر فى مشاعره وإحساساته ، بل فى الحقيقة أن اتصاله بالروائع الفنية القديمة هو الذى دعاه إلى أن يدرك قابليته فى الخلق الفنى » .

نقد الفن :

إن فقد إيجاد مقاييس عامة لمعرفة المدى الذى تبلغه الروائع الفنية من الكمال ، كل حسب نوعه ، هو الذى جعل أمر نقد الفنون الجميلة من الصعوبة بمكان عظيم . ويقول الأستاذ أندريه جيد فى هذا المعنى : « إن نقد الفنون الجميلة من أخطر أنواع الكتابة ، ولم يجد فى هذا الباب إلا النزر القليل من الكتاب »
ومن الممكن حصر الأسباب التى تجعل النجاح فى نقد الفن عسيراً فى ثلاثة أمور :

١ — عدم وجود نماذج مثالية تقاس عليها القطع الفنية .
٢ — اختلاف الأذواق وتباين النزعات فى تقدير القطع الفنية ، ومن النادر أن نجد ناقدين يتفقان على أمر واحد بحذافيره .
٣ — والسبب الثالث ويتفرع من الثانى ، هو صعوبة وجود التجرد التام فى الحكم على القطع الفنية .

وكثيراً ما يصدر النقاد حكمهم على قطع فنية عظيمة دون أن يعيروها الوقت الكافى ، فيكون حكمهم غير دقيق وبعيد عن الحقيقة والواقع . ويذكر الناقد الكبير كلايف بل فى موضوعه « مهلا أيها النقاد » بأن نقاد الفنون على الرغم من

ادعائهم بعدم التسرع فى الحكم على القطع الفنية كثيراً مايقترفون أخطاء جسيمة ويجورون على الفنانين بغير حق .

ويستمر كلايف بل فى بحثه قائلا : « إن بعض القطع من الممكن تذوقها من أول لحظة يوجهها الناقد إليها ، أما البعض الآخر فيستحيل عليه إدراك مواطن الجمال فيها ، واكتشاف الأفكار التى تحملها ، والبواعث التى دعت الفنان أن يجعل قطعته بهذا الشكل دون غيره ما لم يمعن هذا الناقد فى النظر ويتعمق فى التحليل » .

ويدعم الأستاذ كلايف بل معالجته لهـذا الموضوع بأمثلة عديدة لأخطاء جسيمة اقترفها كبار النقاد .

يذكر الأستاذ ماك كول فى كلامه عن نقاد الفنون أن هناك نوعين من هؤلاء : النوع الأول وأحسن كلمة نصفهم بها هى كلمة « مراسلون » ، وهؤلاء لا هم لهم سـوى حشو الصحف والمجلات بكلمات فارغة مسولة عن المعارض التى يحضرونها نيابة عن الصحف والمجلات التى يراسلونها ، ومعظم هؤلاء لايملكون المعرفة الكافية التى تؤهلهم لنقد القطع الفنية ، فإذا ماعرضت عليهم قطع ترجع فى طابعها إلى الفن الكلاسيكى القديم ، قالوا : لقد سبق أن صدر الحكم على الفن القديم ، وإن جادلتهم فى معروضات الفن المعاصر ، أجابوك بقول : إما ينطوى على عدم الاكتراث ، أو يدل على الإطراء والإمعان فى المديح .

ويقول الأستاذ ماك كول فى هذا : « ليس الفنانون بضاعة يكال لها المديح والإطراء ، أو الذم والافتراء ، من النقاد حسب ما تمليه عليهم أذواقهم وأهواؤهم » .

أما النوع الثانى من النقاد ، فمنهم من يملك معرفة كافية واطلاعاً واسعاً بالفنون ، ولكنهم إلى جانب هذه المؤهلات مدفوعون بعامل التحيز . لهـذا فإنهم يمقتون من الفنانين لافتقارهم إلى النزاهة فى الحكم ، وتراهم يختارون من القطع ما لا لهم ، ويجعلونها هدفاً لصب معلوماتهم ، كأنه لا فرق بين القطع الفنية الرائعة والمواد الأولية التافهة .

نجم الدين حمودى
سكرتير مجلة سومر — بغداد

حـــيران !

للأســـتاذ ابراهيم محمد نجا

حيران فى دنيا الجمال نشوان من خمر الخيال
لمن العيون كأنها نور يطوف بالظلال ؟
حوراء إن نظرت غدا ل بها وليس بها الكلال !
سكرى من الخمر التى لعبت بأفئدة الرجال
لمن العيون كأنها أفق توشح بالجلال ؟
زرقاء تحلم فى هدو ء لا يشذبه ملال
كبحيرة مسحورة سحرت حواليها الرمال
تسبى القلوب كنظر الآفاق من قمم الجبال
لمن الضفائر حرة من كل قيد أو عقال !
يغدو النسيم لها فتر قص فى اليمين وفى الشمال
سوداء فى لين الحرير ، ورقة الماء الزلال
لمن الخدود نقية كالنبع فى أعلى التلال ؟
فتحنو وتحنو عليـ ـه فى خشوع وابتهال
وطرا يقبله الندى وتضمه ريح الشمال
لمن الشفاه نواضرا ريّا بأحـلام الليال
شمخت كشمس فى الضحى وتقوست مثل الهلال
تدعو الرشيد إلى الضلا ل ، وآه من هذا الضلال !
لمن النهود روانياً فى كبرياء واختيال ؟
متحفزات للوثو ب ، مبادرات للنضال !
تدنو لمن تهوى ، وتبـ ـعد عن سواه ، فلا تنال
لمن الخصور الراقصا ت مع الأشعة والظلال ؟
من كل خصر مرهف ريان من خمر الدلال
أخشى عليه من النسيـ ـم دنا فطوقه فمال
ومن الغلالة إذ تعا نقه ، فيشعر بالملال !

أواه لو رويت هـ ـذا القلب من خمر الجمال !
أواه ! لـكنى أعيـ ـش كزهرة بين التلال !
أبكى من الحرمان حتى صرت أنتظر الزوال
فتن تمر بناظرى ويخاطرى منها مثال
فتن حرمت وصالها وأنا المشوق إلى الوصال
علقت بها نفسى كما علقت بأطياف المحال !
فتن أعانقهـا وأل ـثمها، ولكن ... فى الخيال!

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

مع الأستاذ توفيق الحكيم فى « أوديب الملك » :

فى العدد (٨٣٥) من الرسالة ، سألنى أديب عراقى فاضل هو الأستاذ فؤاد الونداوى عن بعض الآراء التى عقب بها الأستاذ توفيق الحكيم على مقدمة الترجمة الفرنسية لمسرحية « أوديب الملك » ... ولقد عرض الأستاذ الونداوى لتلك الآراء بالنقد والتحليل ، مخالفاً صاحبها فيما ذهب إليه من تفسير لبعض القيم النفسية والفنية ، طالباً إلى أن أعقب على الرأيين : رأى الكاتب ورأى الناقد .

يقول الأستاذ الونداوى إن الأستاذ الحكيم قد حاول أن يوفق بين فكرة الأسطورة وبين روح الإسلام ، فجعل من رغبة أوديب فى العلم بالحقيقة وبحثه المتصل عنها سبباً يدفع أوديب إلى الكارثة ، أى أنه جعل الموجب للكارثة طبيعة أوديب ذاتها ؛ طبيعته المحبة للبحث فى أصول الأشياء الممعنة فى الجرى خلف الحقيقة . ثم يعقب الأديب العراقى الفاضل على ذلك بقوله : ولست أدرى كيف استساغ كاتب فنان كتوفيق الحكيم أن يجعل من حب أوديب للحقيقة وسعيه وراءها إنما يستحق عليه ذلك العقاب المنكر الفظيع ؛ فإن حب الحقيقة والسعى وراءها — مطلقة كانت أو نسبية ، عامة كانت أو جزئية — لدى أناس كالفلاسفة والعلماء هو الذى بث شهرتهم فى الآفاق وخلد ذكرهم فى أعماق الأفئدة ، والهج به الألسنة على مدى الأجيال والعصور !

أود أن أقول للأستاذ الونداوى رداً على اعتراضه : هل أتى اعتراضك يا صديقى على أساس من خطأ الفكرة النفسية ، أم على أساس من التعثر فى خطوات العمل الفنى ؟ فى رأيى أن الأستاذ الحكيم قد بعد عن منطقة الاعتراض فى كلتا الناحيتين ؛ لأننا لو وضعنا الفكرة النفسية تحت المجهر لبدت لنا متفقة مع منطق الحياة ومنطق الفن ... لا خطأ أبداً إذا ما جعل توفيق الحكيم من جرى أوديب وراء الحقيقة سبباً يدعو إلى الكارثة ؛ لأن طبيعة أوديب النفسية — طبيعة الشك والتحدى والغرور والكبرياء — من شأنها أن تدفع به إلى هذا المصير المحزن الذى انتهى إليه ! إننا لو بحثنا من نقط الارتكاز الفنية فى المسرحيات الثلاث وأعنى بها مسرحية سوفوكل ومسرحية أندريه جيد ومسرحية توفيق الحكيم ، لوجدناها تتفق جميعاً على أن الطبيعة النفسية عند أوديب كانت هى مصدر الكارثة ؛ الكارثة التى أدت بأوديب إلى أن يقتل أباه لايوس ويتزوج من أمه جوكاست ويفقأ فى النهاية عينيه ليحرم إلى الأبد من نعمة الضياء ... أوديب عند سوفوكل يبحث عن الحقيقة ، وعند أندريه جيد يبحث عن الحقيقة ، وهو يبحث عنها أيضاً عند توفيق الحكيم ؛ فالأساس النفسى موجود عند الكاتب الإغريقى وموجود عند الكاتب الفرنسى وموجود عند الكاتب المصرى . وإذا كان الصراع الخارجى بين إرادة الآلهة وحرية الإنسان هو الهدف الأصيل لخطوات العمل الفنى عند سوفوكل وأندريه جيد ، فإن خطوات العمل الفنى عند توفيق الحكيم قد أحالته صراعاً داخلياً بين إرادة الإنسان وبين سطوة الحقيقة ... هناك صراع مشبوب تثيره فى نفس أوديب نزعة التحدى للقوى الخفية ولو كان فيها ألف مورد من موارد التهلكة ، وهنا صراع مشبوب أيضاً ولكن الدافع إليه نزعة أخرى هى نزعة الشك الملح فى التخلص من الواقع ، ولو كان فيه ألف سبيل من سبل النجاة من الكارثة . وكلا الصراعين يتقرر معه المصير على ضوء الطبيعة النفسية التى عالجها الأستاذ الحكيم علاجاً حاول فيه أن يوفق بين فكرة الأسطورة وبين روح الإسلام !

هذا يا صديقى عن منطق الفن ، أما عن منطق الحياة فلا أرى أن توفيق الحكيم قد خالف منطق الحياة أو اعترض سيرها الطبيعى ... إن الحياة تقدم لنا فى كثير من الأحيان نماذج نفسية من طراز أوديب يدفعها حب الاستطلاع والبحث عن الحقيقة إلى كثير من المتاعب والكوارث والآلام ! أنا معك فى أن حب الحقيقة والسعى وراءها لدى أناس كالفلاسفة والعلماء هو الذى بث شهرتهم فى الآفاق وخلد ذكرهم فى أعماق الأفئدة ، والهج به الألسنة على مدى الأجيال والعصور . أنا معك حين أقدم إليك واحد ممن ذكرت هو الفيلسوف الألمانى نيتشه ... ولكن

لا تنس أن هذا الفيلسوف العظيم الذي ظل يبحث عن الحقيقة حتى رفع عنها الغطاء ، هذا الفيلسوف يا صديقي قد فقد عقله في سبيل الجري وراء الحقيقة !

أختلف معك في هذه النقطة وأتفق معك في نقطة أخرى ، هي اعتراضاتك على الأستاذ الحكيم حين يقول : إن رغبة أوديب في العلم بالحقيقة هي التي جرته إلى ما جره العلم الحديث على الإنسان الحديث ممثلا في (فرويد) عندما طفق يحفر في أعماق الإنسان إلى أن وجد أنه عاشق في الباطن لأمه ! ... الواقع أنك لم تعد الحق حين أفصحت عن حيرتك أمام هذا التعليل ، وحين قلت إنك لم تفهم كيف ارتضى الأستاذ الحكيم أن يشبه حالة أوديب أمام المأساة بحالة فرويد أمام حقائق النفس ! إلى هنا يا صديقي وأقف إلى جانبك لأنه لا وجه للمقارنة على الإطلاق ...

أما بعد ذلك فلا أرضى عن تفسيرك المشكلة عندما تقول : إن البحث عن الحقيقة قد أدى عند فرويد إلى اكتشاف الحقيقة فحسب ، ولكنه عند أوديب قد أدى إلى وقوع الكارثة أو المأساة وواضح أن الفرق بين الحالين أكبر وأوسع من أن يستقيم أي تشبيه بينهما !

أريد أن أسأل : هل كشف فرويد حقاً عن الحقيقة التي رددها من بعده الكثيرون في الشرق والغرب ، وأعني بها عشق الطفل في الباطن لأمه ؟ هذا العشق الناتج عن مص ثديها في حالة الرضاع مما يترتب عليه لون من ألوان اللذة الجنسية ، حتى لتتحول تلك اللذة عند تقدم السن إلى عادة التدخين عند كثير من الناس ؟ لأن فيها بقية من المتعة الجنسية في الصغر ممثلة في عملية المص بالشفتين ، والفم كما يقول فرويد منطقة من المناطق الشديدة الحساسية والشعور باللذة ؟! .. ليصدقني الكثيرون إن هذا التفسير النفسي الذي جاء به فرويد تفسير يحفل بالشذوذ وانحراف التفكير ؛ لأنك لو أرضعت الطفل من ثدي أنثى من إناث الحيوان لهام بها نفس هيامه بأمه ، ولتعلق بها نفس التعلق ولأقبل عليها نفس الإقبال ؛ لأن عقله الصغير إلى أبعد حدود الصغر لا يهيئ له أن يفرق بين مرضعة ومرضعة ولا بين حيوانة وإنسانة ! إن المسألة مسألة شعور بالجوع واندفاع إلى كل منبع من منابع التغذية يمكن أن يرد عن الطفل الجائع غائلة الجوع ، فكيف نقبل هذا الشذوذ الفكري الذي ينادي به فرويد حين يلصق بالطفولة البريئة نزعة الانحرافات الجنسية ؟ ! ... ثم هل تتحول حقاً تلك اللذة الجنسية المتخلفة عن أيام الطفولة إلى لذة التدخين عند كثير من الناس ؟ ترى كيف يستقيم هذا التفسير العجيب إذا ما قدر لفرويد أن يعيش في تلك الأيام التي لم يكن فيها تدخين ولا مدخنون ؟! . إننا في انتظار الجواب من المولعين بهذا اللون الطريف من الدراسات النفسية !

بقي أن أرد على النقطة الأخيرة التي أثارها الأستاذ الونداوي حول رأي آخر من آراء الأستاذ الحكيم حين يقول : إن الطعن الذي أنزله أوديب بعينيه قد ذهب في تفسيره أندريه جيد في مسرحيته إلى كونه إمعاناً في الكبرياء . يؤكد الأستاذ الونداوي أن الواقع يشهد وصحائف الكتاب بدورها تشهد بأن أندريه جيد لم يقل مثل هذا الكلام ولم يفكر فيه ، لأنه قال بصراحة من لسان أوديب مخاطباً الكاهن تيرسياس بأنه — أي أوديب — إنما يفقأ عينيه لأنهما لم تحسنا تنبيهه إلى الكارثة قبل وقوعها ولم تهيئا له الطريق ! معذرة يا صديقي إذا أكدت لك أن الواقع يشهد وصحائف الكتاب بدورها تشهد بأن أندريه جيد قد قال مثل هذا الكلام وفكر فيه ... أما عن الواقع فهو ممثل في تلك الزاوية التي سلط منها أندريه جيد أضواءه على شخصية أوديب الإنسانية ؛ وهي الشخصية المتعالية المتحدية المتكبرة المغرورة الثائرة على الآلهة في كل فصل من فصول مسرحيته . إن طعن أوديب لعينيه لم يكن في الواقع إلا تحدياً للآلام وإمعاناً في الكبرياء ! مهلا يا صديقي ولا تعترض ... إن صحائف الكتاب تشهد بصدق ما أقول ، هناك قبل نهاية الفصل الأخير بصفحتين حيث يقول أندريه جيد عن لسان تيرسياس مخاطباً أوديب بعد أن فقأ عينيه : « إذن فهي الكبرياء التي دفعتك إلى أن تفقأ عينيك . لم يكن الإله ينتظر منك هذا الإثم الجديد ثمناً لجريمتك الأولى ، وإنما كان ينتظر منك الندم ليس غير » !

بعد هذا أرجو أن يتقبل الأستاذ الونداوي خالص الشكر على حسن ظنه ، وعاطر التحية على صدق إخائه .

حول مستقبل الشعر وانحراف المواهب :

هذا العنوان يجمع بين عنوانين ، أحدهما لمقال كتبه الأستاذ يوسف البعيني في العدد (٨٣٥) من الرسالة ، والآخر لمقال كتبته أنا في العدد (٧٩٧) من الرسالة ... ولقد لاحظت أن الأستاذ البعيني قد جال بفكره في نفس الأفق الذي جلت فيه

من قبل ، وأن هناك كثيراً من التقارب بين وجهات النظر وطرائق التعبير ومرامى الألفاظ . إنه لون من توارد الخواطر غير شك ؛ لأن طبيعة الموضوع الذى تناولته بالدراسة كما تناوله الأستاذ البهبى حول ماضى الفن وحاضره ، من شأنها مع النظرة المتغلغلة فى أعماق المشكلة أن يخرج منها الباحث بمثل ما خرج به الأستاذ وخرجت ، من تحليل يؤدى إلى تحليل ومن مقدمة تدفع إلى نتيجة .

يبدأ الأستاذ البهبى مقاله عن « مستقبل الشعر » بهذه الكلمات : « أجمع فريق من الحكماء والمصلحين وفى طليعتهم الموسيقى البولونى المشهور أنتون بادريفسكى على أن الفنون الجميلة تسير بخطى واسعة نحو الفناء . ومما قاله ذلك العبقرى الموهوب أن تلك الأنغام العميقة التى كانت ترفع الروح إلى الملأ الأعلى توارت أمام الموسيقى الأمريكية الحديثة . لقد صدق هذا الفنان فى تعليله ؛ فإن رجل الفن كان فى الماضى البعيد يغذى عبقريته بجمال الطبيعة . أما الآن فهو لا يعنى بإغناء موهبته وتهذيبها إذ طغت موجة المادة وتبدلت أغراض الحياة فاختلفت عما كانت عليه فى سابق الأجيال » .

هذا هو مفتاح المشكلة الذى يعالج به الأستاذ البهبى فتح المنافذ المؤدية إلى نتائج موضوعه ، وهو نفس المفتاح الذى قدمته من قبل حيث قلت : « ... هذه الحضارة التى نعيش فيها حضارة قوامها المادة تبدأ منها وتنتهى إليها ، وتدفع الناس إلى أن يتلمسوا الوسائل لكسب العيش من طريق غير طريق الأدب والفن فى كثير من الأحيان ؛ لأنه طريق غير مرجو الفائدة ولا مأمول العواقب فى ميدان النضال مع الحياة ومن هنا يتجهون باستعدادهم وملكاتهم اتجاهاً يبغون من ورائه الكسب المادى والمكان المرموق والفن فى رأى الماديين لا يحقق لهم شيئاً من هذا ، وماذا تجدى الشهرة فى رأيهم مع الفاقة أو يعود عليهم من المجد وفى ركابه الحرمان ! ...

إن صوت هربرت ريد فى كتابه (الفن والمجتمع) ليضيع وسط ضجيج المادية الأهوج حين يقول : « يجب أن ننظر إلى الفن نظرتنا إلى كل شىء لا يستغنى عنه ، مثله كمثل الخبز والماء وعلى أنه جزء من حياتنا اليومية لا يتجزأ . وينبغى ألا يعامل الفن كضيف عابر ، ضيف يدفع أجر ضيافته ، ولكن كواحد من أفراد الأسرة سواء بسواء » ! ...

إن الحضارة الحديثة وتعقد مشكلاتها قد استبدت بالمواهب والعقول فوجهتها تبعاً لهذه المشكلات ، وما فيها من تعقد لم يدع لها من لحظات الفراغ ما يمكنها من استلهام الوحى فى الفنون الرفيعة ، وما أبعد الفرق بين الفنون فى ماضيها الغابر وحاضرها المشهود ! لقد كان الناس فى الماضى البعيد يبشرون للفن ويطربون له ويشجعون المواهب على أن تمضى فى طريقها فلا انحراف ولا اعوجاج وإنما اتصال مطلق بالطبيعة واستلهام لمظاهرها وروائعها ، فلما تعقدت الحياة وطغت المادة على كل شىء بطغيانها القوى الجارف ، انحرفت المواهب عن ميادينها الأصيلة وانحرفت معها الأذواق» !

« من وراء الأبد » وجرأة القصاصين العوام :

قيل إن الذبابة هبطت يوماً على رأس الفيل ، فلما يئست من أن تشعره بوجودها قالت له : يا عزيزى ، إنى طائرة عنك ... ونظر إليها الفيل ضاحكا ثم قال : يا عزيزتى ، والله ما أحسست بك هابطة حتى أحس بك طائرة !!

تذكرت هذه القصة الطريفة وأنا أستمع لمن نقل إلى خبراً فحواه أن قصاصاً من القصاصين العوام ، اجترأ على أن يتهمنى فى إحدى الصحف اليومية بالسطو على أحد الأفكار من قصصه لأزدان بها قصتى « من وراء الأبد » ... أما هذا القصاص العامى النابغ الذى أراد أن يشعرنى بوجوده كما فعلت الذبابة الخالدة ، فهو السيد أمين يوسف غراب !

أود أن أقول لهذا القصاص الذى لا أشك لحظة فى أنه درس فن القصة فى كتاب القرية ؛ أود أن أقول له إنه لو قدر له أن يعاصر المثال الفرنسى العظيم رودان لألهمه الإبداع فى صنع تمثال يمثل الغباء النادر ... ذلك لأنه لو خطر لى أن أنقل فكرة عن أحد القصاصين ، فإن الذوق يفرض على أن ألجأ إلى أعلام القصة فى أدب الغرب . عندى مثلا فى الأدب الفرنسى بلزاك ودماس وفلوبير وزولا وموباسان ، وعندى مثلا فى الأدب الروسى تولستوى ودستويفسكى وتورجنيف وتشيكوف وجوركى ، وعندى مثلا فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى ديكنز ولويس ولورنس وموم .. فمن يصدق أنى أترك تلك القمم حيث يحلق النسور ، لأهبط إلى السفوح حيث يحلق الغراب ؟ !

أنور المعداوى

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

تعليم اللغة بدراسة الأساليب :

عقد مفتشو اللغة العربية مؤتمراً بكلية دار العلوم في الأسبوع الماضي برياسة عميدهم الأستاذ مهدي علام ، ومن الموضوعات التي نظروا فيها موضوع دراسة قواعد اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية ؛ وقد انتهى المؤتمر في هذا الموضوع إلى أن تدرس اللغة العربية عن طريق اللغة نفسها نصوصها وأساليبها وتستخلص القواعد من هذه الأساليب من غير إسراف في الاصطلاحات النحوية المطولة . وقد عرض الفكرة على المؤتمر ، الأستاذ مهدي علام ، فلقي معارضة شديدة في أول الأمر من أنصار النحو والقواعد ، ولكنه ما زال يبين وجهة نظره ويدلل عليها حتى وافقه الجميع إلا واحداً ، وكان عند بدء عرضها لا يؤيده فيها غير واحد ..

وقبل أن أعقب على قرار المؤتمر أبسط الموضوع بعض البسط فأقول : إن الطريقة الطبيعية في تعلم اللغة هي سماع مفرداتها وتراكيبها والتمرن على محاكاتها بالتعبير على مثالها ، حتى تصبح القدرة على هذا التعبير ملكة يصدر عنها القلم واللسان ، أما القواعد فهي ضوابط يقصد منها التحرز من الخطأ في اللغة لا تعلم اللغة نفسها .

وقد وضعت القواعد أول ما وضعت لذلك الغرض ولكن المشتغلين بها تدرجوا فيها إلى أن صارت دراسة مقصودة لذاتها في العصور المتأخرة ، وهي العصور التي انحطت فيها اللغة وركت أساليبها ، ومن المشاهد المعروف أن النحويين على قدر ما برعوا في صناعة النحو لحقهم العجز والضعف في ملكة التعبير والبيان ، على خلاف البلغاء من الكتاب والشعراء الذين لم يحصلوا من تلك الصناعة إلا القدر الضروري لضبط ما يقولون ويكتبون .

وقد رأينا في عهد التعلم معلمين يتوكؤون على الإعراب حتى في غير دروس القواعد ، فإذا عرض أحدهم لبيت من الشعر مثلا شغل بأوجه الإعراب في ألفاظه عن وجه الجمال السافر فيه ، وكان لنا أستاذ ألف كتاباً سماه « ترويق الجو بتحقيق لو » ثم كان من فضل الله أن ضاع منه أصل هذا الكتاب قبل أن يدفعه إلى المطبعة فراق الجو بفقده ولم يكن من المنتظر أن يروق بتحقيق لو .. وكم رأينا مدرسين يحولون دروس المطالعة والأدب إلى نحو وصرف لأنهما المجال الذي يحسنون الكلام فيه . وإن ناقشت هؤلاء في جدوى كثير من التفصيلات النحوية التي يخوضون فيها ، قالوا : إنها رياضة ذهنية . أوليس من العبث أن تنفق الجهود والأوقات في هذه الرياضة الذهنية العقيم ، في هذا العصر الذي تعددت حاجاته إلى أنواع المعرفة ؟

ولا تزال مناهج المدارس في اللغة العربية مثقلة بهذا النحو ، وخاصة في المدارس الابتدائية التي يبدأ فيها التلميذ تعرّف اللغة العربية ، فالطفل في السنة الثانية مكلف أن يعرف الفاعل والمفعول به والمبتدأ والخبر ، ومطالب بتكوين جمل تشتمل على مضاف إليه خبر ، ومضاف مبتدأ ، ومنعوت مفعول به ... الخ ، وهو لم يتصور بعد هذه اللغة التي يطلب منه أن يحلها ويفهم مصطلحات قواعدها

ولا بد أن نذكر إلى جانب ذلك حقيقة بديهية مفهومة ، وهي أن اللغة العربية الفصيحة ليست لغة البيت والمجتمع الآن ، فلا بد إذن من ضوابط تعصم من الخطأ فيها ؛ ولنفرض أننا فرغنا من تصفية هذا الخليط من القواعد ومصطلحاتها وغربلته ، حتى حصلنا على القدر اليسير النافع منه ، فكيف ومتى يتعلمه الناشىء ؟ وهنا نصل إلى ما قرره مؤتمر مفتشي اللغة العربية ، وهو دراسة الأساليب واستخلاص القواعد منها ، وأقرر أولا أنه لا جدال في ضرورة الإكثار من المطالعة بأنواعها مع التشويق إليها والإكثار من التمرن على التعبير شفوياً وتحريرياً . ثم أسأل ما المقصود باستخلاص القواعد من الأساليب ؟ هل هو أن يبدأ بتعليم القواعد على طريقة الإتيان بأمثلة كثيرة واستنتاج القاعدة منها ؟ أو المقصود أن يترك الناشىء سنوات يسمع فيها اللغة ويقرؤها ويعالج التعبير بها ، بحيث يدركها إدراكا كلياً ، وبحيث يشعر بالحاجة إلى ضوابط لها ؟ وعند ذلك تنتهز فرصة تشوقه إلى

الضوابط، فيعرّف بها بطريقة سهلة ميسرة؟

أما الطريقة الأولى فهي المتبعة الآن، وهي طريقة معوجة، لأن التلميذ لا يكاد يبدأ في تذوق اللغة حتى يصدم بالقاعدة والمصطلحات، والمأمول أن تمد المناهج الجديدة وفق الطريقة الثانية ليتحقق المقصود من دراسة الأساليب واكتساب ملكة اللغة من نفس اللغة.

كابوس ليلة:

هو فلم «حلم ليلة» الذي عرض في هذا الأسبوع لأول مرة بسينما أوبرا، وهو من تأليف وإخراج «وجه جديد» في الإخراج بمصر هو صلاح بدرخان، وبطلاه أيضاً وجهان جديدان هما وجيه بدرخان ونور الصباح، واشترك في التمثيل من الممثلين المعروفين بشارة واكيم ومنسى فهمى.

آدم (بشارة واكيم) تاجر قماش شاى بمصر، تحتال عليه امرأة من بنات البلد، فتأخذ منه بضاعة وتغريه بأن يصحبها على أن تحضره الثمن من زوجها الطبيب، وتفلت منه في عيادة الطبيب التي ادعت أنه زوجها بعد أن أدخلت على الطبيب أن زوجها تاجر القماش مجنون، فيخدعه ويدفع به إلى مستشفى المجانين، ثم يهرب آدم من المستشفى ويعود ليستأنف عمله.

وفي أثناء ذلك يتوجه ابن أخته نبيل (وجيه بدرخان) إلى عيادة الطبيب ليخاطبه في أمر خاله، وهناك يسمع غناء، فينظر من نافذة بسور الحديقة، فيرى بنت الطبيب نجاح (نور الصباح) تغنى ومعها فتيات يرقصن. ثم يدخل من الباب ويلتقى بنجاح ويقول لها إنه موسيقار، وقد سمع صوتها فأعجب به، فتصحبه إلى ملعب في الحديقة حيث يعزف لهن، وبعد ذلك يصيره أستاذاً لها في الموسيقى، ويتبرم به رشاد ابن عم نجاح، ويحاول أن يحقره أمام نجاح فتنهره، وينشأ حب بين نجاح ونبيل، ويفاجئهما أبوها في وضع غرامي فيغضب ويطارد الموسيقار العاشق. ويحاول رشاد أن يكسب ود نجاح ويخطبها إلى أبيها ولكنها تعرض عنه وترفض خطبته، فيخرج ساخطاً، ثم يلجأ إلى الانتقام فيسرق خزانة عمه ويدب على ابنة عمه ليلا، ويحرض عليه المجانين في المستشفى فيعتدون عليه اعتداء يذهب ببصره، ثم يختفى لدى قبيلة من الأعراب. ويتوجه نبيل هو وخاله إلى الطبيب،

كشكول الأسبوع

□ وافق مجلس الوزراء في اجتماعه الأخير على أن ينشأ في القاهرة معهد للدراسات العليا الخاصة بالسودان باسم «معهد السودان» على أن يكون ملحقاً بجامعة فؤاد الأول مستقلا عن كلياتها، ويكون طلابه من خريجي كليات الجامعة وما يعادلها.

□ أصدر معالي وزير المعارف أمراً بتأليف لجنة يرأسها الأستاذ محمد شفيق غربال بك وكيل الوزارة، لدراسة موضوع عقد مؤتمر لحضارات دول البحر الأبيض المتوسط باعتبارها أساس الحضارة الإنسانية. وأهم مشروعات هذا المؤتمر إنشاء معهد في كل دولة من تلك الدول لدراسة حضارتها دراسة عالية.

□ جاء في بعض الأنباء أن القوات الأمريكية بألمانيا تحتفظ برأس نفرتيتي ولا تريد أن تعيده إلى مصر لأن الرئيس ترومان قد أغرم به ... وقد صب هذا الرأس لعنة الفراعنة على رأس هتلر، فليحذر ترومان هذا الغرام!

□ يقام بباريس في سبتمبر القادم معرض لمصر — فرنسا، تعرض فيه أعمال فنية مصرية، وتعتزم مصلحة الآثار أن تبعث برأس أخناتون إلى هذا المعرض، فهل نأمن الغرام الفرنسي على هذا الرأس؟ أقترح على مصلحة الآثار المصرية أن يحتاطوا على كل تمثال مصري ضد «الغرام» الأجنبي.

□ ومما نظر فيه مؤتمر مفتشي اللغة العربية موضوع الإنتاج الأدبي للمدرسين، وقد حدده المؤتمر بأنه ما ينشئه المدرس — خارج النطاق المدرسي — في الإنتاج الأدبي العام، ورأى أن يكون الإنتاج القيم من أسباب ترقية صاحبه وتقديمه في الوظائف الأدبية والثقافية.

□ عهدت وزارة المعارف إلى الأستاذ زكي طليمات أن يقوم بدراسة فن الإخراج في الهواء الطلق، وهو الآن بإيطاليا يشتغل بهذه الدراسة. هذا وقد رصد أخيراً اعتماد لإنشاء مسرح صيفي في القاهرة، فهل يطبق الأستاذ طليمات ذلك الفن — بعد عودته — في صحراء الإمام أو فوق تلال زينهم؟

□ لا يسعني — بعد أن قرأت قصيدة «مأتمية الصباح» للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان، في العدد الماضي من الرسالة — إلا أن أقول: إيه يا فدوى!

□ يجتمع المؤتمر العام لهيئة اليونسكو بباريس في التاسع عشر من شهر سبتمبر القادم، ويستمر إلى أول أكتوبر الذي يليه. ومن المسائل المدرجة في جدول أعماله مسألة المساعدة الفنية للبلاد التي لم تتوافر لها الأسباب لاستغلال مواردها.

□ كتبت اليونسكو إلى وزارة المعارف تقترح إيفاد أحد الطلبة المصريين المتخصصين في دراسة الآثار والمتاحف والتاريخ لمدة ستة أشهر يصحب الوفد بباريس على نفقة اليونسكو، وذلك توكيداً لاتصال تلك الهيئة بثقافات الشرق الأوسط.

فيتوددان إليه ويخطب آدم نجاح لابن أخته نبيل فيرحب بهما أبوها الطبيب. ويجدُّ نبيل وخاله آدم في البحث عن رشاد حتى يعثرا عليه في البادية ، فيفر ويلحقان به ومعهما بعض الأعراب ، فيقتلونه ، ويعود نبيل بالنبأ إلى خطيبته ووالدها الضرير الذي يسر ويضمهما إلى صدره ، ولا بد أن يعود إليه بصره في هذا المنظر الأخير ...

والقصة كما تراها فارغة لا غاية لها ، وقد حشيت مناظر قصد بها الإضحاك ، ولكن المضحك حقاً هو نفس الحوادث الجدية فيها

فمثلا هذا الشاب (نبيل) البطل المحبوب الذي يفترض فيه « النبل » يقف ليختلس النظر إلى عورات الناس من النوافذ . . وما يكاد يدخل حتى تلتقطه الفتاة وفي منتهى السرعة والسهولة يصير لها معلماً ويأتي أبوها تواً ويسأل عن هذا (الأفندي الغريب) ويوافق في الحال !

ولا أدرى لماذا أباحت نجاح لنفسها أن تشتم ابن عمها وتهينه عندما أراد أن يخطبها ولم تظهر لنا الحوادث قبل ذلك أن شيئاً بدر منه يستحق عليه هذه الشتيمة التي لا تليق بفتاة مهذبة ، والغريب أن ما ارتكبه من الحوادث يأتي بعد ذلك ، فكأنها كانت تؤنبه مقدماً ! وكان منظر دبيب رشاد إلى ابنة عمه داعياً إلى الاشمئزاز وكان يمكن أن ترتبط الحوادث دون الوقوع في هذه الزلة . وكانت خاتمة الأضاحيك هي ختام القصة بذلك المنظر الذي عاد فيه البصر إلى الرجل لأنه سر بقتل ابن أخيه المجرم وزواج ابنته من حبيبها ، وهي طريقة فريدة في علاج العمى واسترداد النظر ، جديرة بأن يلتفت إليها أطباء العيون أو بأن يستغني بها الناس عنهم .

وأخلص بعد ذلك إلى ثلاثة عناصر حشي بها الفلم بقصد التسلية والإمتاع أو قل لملء فراغه من القيمة الموضوعية ، تلك العناصر هي : روعة المناظر ، والحوادث المضحكة ، ثم الرقص والغناء . من الأولى منظر البدو في الصحراء وعدو الخيل ومطاردة الفرسان ، عندما عثر على الجاني هناك . ولا ندرى لم اختفى الجاني ولجأ إلى تلك القبيلة ولم يصدر أمر بالقبض عليه ولم يجر أي إجراء لمحاكمته ، ولكن الرغبة في عرض المنظر نفسه جعلت الأعراب مكان الشرطة ، وجعلت الموسيقار الفنان يجيد الرماية ويطلق الرصاص على منافسه في الحب فيرديه قتيلا !

واما المضحكات فقد أخذ لها في الفلم بشارة واكيم ومنسى فهمى ، ووضع الثاني في موضع رجل بخيل يقتر على زوجته ، فيحتال لها جارهما آدم (بشارة) ويمثل الرجل الأشباح والأرواح ليفزعه ويهدده إن لم يوسع على زوجته وإن لم يذهب إلى (آدم) ويعطيه مقداراً كبيراً من المال ، وهذه الحادثة مثل مما ربط إلى القصة من غير حاجتها إليه ليضحك ، ولكنك ترى أنها أفسدت شخصية آدم إذ جعلته محتالا على أخذ مال الغير وهو ليس شريراً في القصة . ولم يكن بشارة واكيم واضح الدعابة ولاخفيف الظل في هذا الفلم ، ومن أسباب ذلك التواء لسانه وتكلفه تقليد اللهجة الشامية . أما منسى فهمى فكان متقناً لدوره ظريفاً إلى حد ما .

ويأتي بعد ذلك ثالثة الأثافي : الغناء والرقص ، وقد امتلأ الفلم بالغناء من البطلين نور الصباح ووجيه بدرخان ، وهو غناء متوسط الحال ، لا هو مطرب ولاهو مضحك ، ولكن تكراره والإكثار من مواقفه والانهماك فيه ، بلغت به درجة الطرف الثاني . ولا أريد أن أسترسل في وصف غناء هذين المطربين ، خشية أن تضمهما الإذاعة إلى مطربيها ... وحسب الناس مايلقون من هؤلاء . والحق أن الموسيقى كانت جيدة .

ومن تمام مواقف الغناء والرقص أن آدم مر في طريقه وهو هارب من المستشفى بعرس فيه راقصة ومغن ، فتفرج عليه ومضى في طريقه .. ولم يكن لهذا العرس أية صلة بحوادث الفلم غير ذلك وهذه الراقصة هي الوحيدة التي ترقص في الفلم على أصول الفن ، أما بقية المناظر الراقصة فهي اجتهادية فطرية ، وقد أوحى اهتزاز الفتيات اللاتي يرقصن في أحد المناظر إلى خيالي منظر (بلاليص) على عربة (كارو) تركت بلا ربط فراحت تتمايل على صرير العجلتين ووقع حوافر الحمار .

والوجهان الجديدان صالحان للتقدم في التمثيل ، ولكن ينبغي ألا يعتمدا كثيراً على الغناء .

عباس خضر

البريد الأدبي

المصريون في نظر أنفسهم :

دعينا لسماع محاضرة سنوية يلقيها الأستاذ مصطفى شاهين برحبة نادى فاروق الرياضى حيث تطل على شاطىء البحر ، ويحتشد فيها الجمع المثقف فى جو ينعش الوجدان ، ويسحر العقل — مرة فى كل عام — !

وكان موضوع المحاضرة « شائقاً — شائكا » — على حد تعبير المحاضر — ، لكنه اقتدر على تقديم الأزاهير من بين الأشواك فى بيان أخاذ جامع بين لغة الخاصة والتنزل إلى الأسلوب الدارج . ولقد أبان قسمة الأمم بتواضعها ، واعتزازها وغرورها ، موضحاً الفارقة بينها ونصيب مصر منها قائلا : إن المصرى يعنف فى الحكم على أمته مدفوعاً بتوثب طبيعة النقد لديه ؟ لكنه يسرف إلى حد إغفال حقه نحو وطنه « فيرميه برميات كلما تسقط السقطات !

وقد عرّض بمن يدعون الثقافة ويشنون على الوطن أوضاع الحياة ، ويتخذون من الحوادث الفردية قاعدة عامة للسلوك الاجتماعى ويحملون همهم الزراية عليه فى أساليب غير مهذبة تحط بالكرامة الوطنية .

وألم إلى قول فولتير : « إن الشعور بالنقص أول درجات الكمال .. » وعقب على هذا القول بأنه يعنى به « الشعب الناقد الساخر لاينقد نفسه لذات النقد بل لدافع قوى يحضه على الكمال . لكن هذا المعنى ليس ممثلا تمام التمثيل لدى الزارى المنتقص لوطنه ، لأنه يتخذ أسلوب نقده لتجاهل قيمته .

ثم استطرد المحاضر عارضاً خصائص تفكير الأمم فى النقد معرضاً ببعضها على طريقته الساخرة ، وخلص من العرض إلى وجوب قيام معرفة النقص على ركنين أساسيين أولهما « الكرامة الوطنية » المقصود بها الاعتزاز بالوطن عند نقده ، وثانيهما « معرفة الواجب نحو الكمال » باتخاذ الأسباب المهيئة له .

ولقد سوغ حدة ثورة النقد بفترة الانتقال التى شبهها « ببكارة الفتاة ، ووثبة بلوغ الفتى » قاصداً عدم القصد فى هذه النزوة ! فكأنه يبرر ما يبدو من نظر المصرى لنفسه على الطريقة المسفة المسرفة ، لكنه يدفع هذا التبرير بوجوب « التوجيه » فى أسلوب مقصود به الإصلاح فى شتى مناحيه .

وكنا نود أن يلمع الأستاذ إلى نزوات بعض المبعوثين الذين يعدون التقاط بعض الثقافة الغربية « بعثاً » لهم بعد موت شرق !

فالعقول المستنيرة تفشيها غشاوات هؤلاء المضلين المترامين تحت أقدام الغرب وهم يدسون السم فى الدسم استجابة لرغبة جامحة يقصد بها الخفض من رفعة وطنهم ملقاً لمظاهرة كاذبة ، وظواهر مخدوعة ! على أنا ننوه بقدرة المحاضر على الاستمالة ، وإبداعه فى العرض وإخضاعه العبارات التى تستعصى على أفهام السواد . ونعتقد أن « الرُّوع » القلب أو الروح و « الرَّوع » الفزع ؟ فقد وردت مرات متعددة فى المحاضرة على غير وضعها ، لكن هذا لن يغض من قيمة هذه المحاضرة القيمة التى يجب أن تكون نواة محاضرات متصلة بالوطنية المتلاقية مع الوعى القوى فى حياتنا الماثلة !

بور سعيد — أحمد عبد اللطيف بدر

كلمة هادئة إلى الحضيين اللغويين :

فى البريد الأدبى من العدد (٨٣٤) من الرسالة ، وقفت على كلمة موجزة تحت عنوان « تعقيب على تعقيبات » للأستاذ الفاضل محمد غنيم ... فى هذه الكلمة ذهب الأستاذ غنيم إلى أن قولى « لم يكن يعرف » قول بين الخطأ ، وصواب الجملة حسب استعمالات العرب أن ترى على هذه الهيئة « لم يكن ليعرف » ، لأن كان المنفية بما ويكن المنفية بلم ، لا يرد بعدها الفعل المضارع إلا مسبوقاً باللام المؤكدة للنفى ويسمونها لام الجحود . وقد ورد القرآن الكريم بهذا الاستعمال ، قال تعالى : « لم يكن الله ليغفر لهم »

ولما كنت أعلم تمام العلم أن التعبير صحيح لا غبار عليه ، وإن كان المنفية بما ويكن المنفية بلم لا يتحتم ورود الفعل المضارع بعدها مسبوقاً بتلك اللام ، لما كنت أعلم هذا فقد رحت أجمع للأستاذ كثيراً من الشواهد من القرآن والحديث وأدب العرب شعره ونثره ، ولكن ... ولكننى فى الوقت الذى تأهبت فيه للرد كفانى الأستاذ مؤونة الرد ! لقد عاد الأستاذ غنيم فى العدد الماضى من الرسالة فتطوع من تلقاء نفسه بتقديم الأدلة على صحة التعبير الذى خطأنى فى استعماله ، ولم ينس أن يستشهد ببعض الآيات من القرآن الكريم !

أود بهذه المناسبة أن أوجه كلمة هادئة إلى المقبلين الناشئين ، هي أن يتريثوا قبل أن يكتبوا ، وأن يحتشدوا لموضوعهم قبل أن ينقدوا .. لأن العجلة من الشيطان ، وما أغنى صاحبها عن الحرج الذي يدفع به آخر الأمر إلى ما يشبه الأسف والاعتذار !

أنور المعداوي

زوج وزوجة :

جاء في المصباح وشرح القاموس

قال أبو حاتم وأهل نجد يقولون في المرأة زوجة بالهاء . وأهل الحرم يتكلمون بها . وعكس ابن السكيت فقال وأهل الحجاز يقولون للمرأة زوج بغير هاء ، وسائر العرب زوجة بالهاء وجمعها زوجات . والفقهاء يقتصرون في الاستعمال عليها (زوجة) للإيضاح وخوف لبس الذكر بالأنثى إذ لو قيل : تركة أو فريضة فيها زوج وابن لم يعلم أذكر هو أم أنثى أه .

وجاء في لسان العرب

وبنو تميم يقولون هي زوجته وأبى الأصمعي فقال زوج لا غير ، واحتج بقول الله عز وجل : (اسكن أنت وزوجك الجنة) فقيل له نعم كذلك قال الله تعالى فهل قال عز وجل لا يقال زوجة ، وكانت من الأصمعي في هذا شدة وعسر أه .

من هذا يظهر أن جميع العرب يقولون زوجة ما عدا الحجازيين وعبروا بها في شعرهم ونثرهم كما أن العلماء ورجال الشرع يؤثرونها على زوج دفعا للاشتباه . وأرى أن نخصصها للمرأة ونخصص الزوج للرجل ، ولا سيما في لغة التخاطب .

علي حسن هلالي
بالمجمع اللغوي

يراعوا لا يراع :

علق الأستاذ السيد صقر في العدد ٨٣٣ على تعليق الأستاذ كرد علي على البيت :

يراعوا إذا ما كان يوم كريهة   وأسد إذا أكل الثريد فظاظ

فقال : والصواب يراعٌ لا يراعوا . وأقول للأستاذ الفاضل إن يراعوا هي الصواب وهي من الروع بمعنى الفزع قال قطري بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعاً   من الأبطال ويحك لن تراعي

ولو قرأ الأستاذ الفاضل هذه الأبيات لأدرك أن الكلام عن جماعة لا عن فرد ، وأن يراعاً بمعنى جبان لا تصدق على الجماعة إذ تأتي للمفرد فقط . قال في الأساس : « ومن المجاز قولهم للجبان الذي لا قلب له هو يراعة ويراع » قال «... فارسٌ في اللقاء غير يراع .

كذلك خطأ الأستاذ « فيزين له الكأس » وأوجب تأنيث الفعل ونسي الأستاذ أن الكأس مجازية التأنيث يجوز معها تأنيث الفعل وتذكيره . وأخيراً للأستاذ الناقد تحياتي وإعجابي .

عمر إسماعيل منصور

من صميم العربية :

مما يجري على ألسنة العامة كثيراً حتى ليظن أنه عامي ، ولا يمت إلى الفصحى بسبب قولهم : « فلان يفك المشاكل » يعنون أنه يحل العقد من الأمور ، وهو بهذا المعنى ورد في اللغة .

ففي « تاج العروس » — وهو يفك المشاكل — الأمور الملتبسة — جـ ٧ ، ص ٣٩٤ .

ومن هذا القبيل قولهم : « شكل فلان كذا ، ظريف أو جميل » يقصدون صورته — وبهذا ورد في اللغة في « اللسان » شكل الشيء صورته المحسوسة والمتوهمة .

من الأخطاء — أبحاث — والصواب — بحوث —

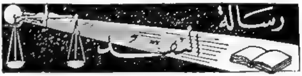
يدور هذا الخطأ على ألسنة الخاصة ، ويرد في كتاباتهم مع أن القياس لا يجيزه ، وكتب اللغة لم تذكره .

« اللسان » اقتصر على ذكر البحوث جمعا — لبحث — ومثله — تاج العروس — و « الأساس » ، ومحيط المحيط » والمختار ، والمصباح » لم يتعرضوا له . والغريب أن صاحب « أقرب الموارد » يذكره — ونص عبارته « البحث : طلب الشيء تحت التراب وغيره ، ج — أبحاث — ولنا أن نسأل : ما مصدره ؟

رياض عباس
دبلوم في التربية وعلم النفس

تصحيح :

في العدد الأخير من الرسالة وقع خطأ في ترقيم الصفحات فذكرنا بعد رقم ١٠٩٩ رقم ٢٠٠٠ وكان اللازم ١١٠٠ .



اللهجات العربيـــة (*)

للدكتور ابراهيم أنيس
الأستاذ المساعد بدار العلوم
للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

ما من شك أن أستاذنا الدكتور أنيس قد بذل مجهوداً عظيما فى كتابه اللهجات العربية ، وحاول مشكوراً تطبيق ما تخصص فيه من علم الأصوات الحديث على ما ورد إلينا من اللهجات العربية وسيجد القارئ تبويباً مرتباً وتسلسلاً مرتبطاً فى عرض واضح لفكرته التى يسوقها وهو يكاد يقنعنا بمواقفه على آرائه وقد أبدع فى أغلب فصول كتابه السنة ودل — كما نعهده — على علم فياض

وإذا جاز أن تكون العادات والتقاليد فى جميع العالم خاضعة لناموس واحد ، جاز لنا أن نقهر جميع اللهجات العربية على الخضوع لما استنتجه الأوربيون من دراستهم لهجاتهم وأصواتهم ولكن ما أحسب أن العوامل التى أثرت فى التقاليد الإنجليزية مثلاً تتفق مع العوامل التى أثرت فى التقاليد العربية تمام الاتفاق فليست البيئة كالبيئة وكذلك فى اللغة ليست الحروف فى أكثرها كالحروف وإذا كانت نظرية الطب أن سوء التغذية مثلاً يسبب ضعفاً عاماً فليس كل ضعف عام فى الطب يرجع إلى سوء التغذية ولكن الظاهرة التى نلحظها فى كتاب أستاذنا هى وجوب إخضاع اللهجات العربية بدون قيد ولا شرط لما قرره علم الأصوات الحديث فإذا وجدنا بصدد البحث أن كثيراً من الظاهرات العربية فى لهجاتها غير منطبق على ما قرره طعنّا فى رواية الرواة مهما بلغت من القوة .

فى رأيى أن هذا الاتجاه غير مستقيم ، فليس من العدل أن أفرض النظريات فرضاً ، وإنما العدل أن أدرس وأستقصى ثم أحاول استخلاص قواعد غالبية غير مكتف بمثل أو بضعة أمثلة . لكنه كما قدمت جعل نظريات علم الأصوات الحديث قضايا مسلمة تنطبق على اللهجات العربية تمام الانطباق ، مع أن النظريات الهندسية لا ينطبق فيها كل مثلثين إلا إذا تساوى فى الفرض ضلعان والزاوية المحصورة بينهما أو زاويتان وضلع . كما أن الطب إذا وجد أعراضاً حاول أن يطبق عليها علمه السابق فإذا وجد فيها نوعاً من المغايرة بحث عن الأسباب ودرسها لا أنه ينكرها أو يخضعها بالقوة لمعلوماته .

أول ما يطالعك كتاب اللهجات العربية فى مقدمته ويتكرر فى ص ٣٢ : « ولسنا نعلم مؤلفاً من علماء العربية على وفرتهم واهتمامهم بكل دقائق الدراسة اللغوية عنى باللهجات العربية عناية خاصة فأفرد لها كتاباً مستقلاً » لو أنه قال لم يصلنا مما ألفه علماء العربية كتاب مستقل باللهجات لكان حقاً لكن إنكاره عليهم العناية باللهجات العربية حكم جائر ، ولقد رجعت إلى كلمة كتبتها فى كراساتى(١) من زمن فوجدتنى كتبت منها ما يأتى : وليس إفراد كتاب فى لغات العرب بالأمر المستحدث ، فقديماً كتبت فى هذا الموضوع مصنفات أفردها أعلام العربية بالتأليف ، وأول من أفرد كتاباً فى لغات العرب هو يونس بن حبيب ونسج على منواله الأصمعى وأبو زيد الأنصارى وأبو عبيدة وجرى على نهجهم أبو عمر الشيبانى والفراء ثم ابن دريد وغيره ، إلا أن أيام الشقاء فى بغداد والعراق التى جلبها المغول إليها كانت أشد شقاء على العلم والأدب فعبثت أيديهم بما أنتجته القرائح الفذة وأتت على مجهود كثير من العلماء الأعلام ، فلا يوجد بين أيدينا — فيما أعلم — كتاب ينفرد بلغات العرب ، وقد قرأ هذه الكلمة أستاذنا المرحوم الحازم بك أيام أن كان عميداً بالنيابة لدار العلوم منذ ثمانية أعوام ، وفيها بخطه لفظان بالقلم الأحمر عدلها . أرجو أن يراجع الدكتور تراجم من قدمتهم وغيرهم فى كتاب ابن خلكان ومعجم الأدباء ، وسيجد أنهم عنوا باللهجات العربية عناية خاصة وأفردوا لها كتباً مستقلة ، ولكنها مع الأسف لم تصلنا ، وقد تكون مختفية فى ثنايا مكتبات العالم تنتظر من يخرجها .

فى ص ٤٢ « ولكن الذى قد يدعو إلى الدهشة أن قراءة

(*) ١٨٤ صفحة طبع بمطبعة الرسالة

(١) أردت بها أن تكون مقدمة لكتاب لى عن اللهجات جامع لها

أبى عمرو وتلميذه يعقوب لم تنتصر للامالة إلا فى مواضع خاصة نصت عليها كتب القراءات ، ولعل الصراع العلمى الذى كان بين الكوفة والبصرة هو الذى دعا إلى أن تتخذ البصرة طريق الفتح فى معظم المواضع حتى لا تشبه الكوفة فى إمالتها » ...

حقيقة أن يعقوب لم ينتصر للامالة إلا فى مواضع خاصة ، أما أبو عمرو فهو من الذين انتصروا للامالة ومن المكثرين فيها — براجع اتحاف البشر — غاية ما فى الأمر أن الإمالة قسمان كبرى وهى التى تسمى الاضجاع والبطح ، ومتوسطة وتسمى التقليل والتلطيف ، وأبو عمرو يميل إمالة كبرى تارة ويميل إمالة متوسطة مرة أخرى ، ولكنه على كل حال من القراء المكثرين فى الإمالة ، أما أن الصراع العلمى الخ ففيه نظر حيث إن القراءة سنة متبعة تؤخذ بالتلقى والرواية لا بالتشهى والهوى ، وقد يخالف القارئ من حوله لتلقيه عن شيوخ آخرين متأثراً بما تلقاه عنهم ، ولهذا لم يكن من الغريب أن عاصماً خالف الكوفيين فى إمالتهم لأنه قال لحفص : ما كان من القراءة التى أقرأتك بها فهى القراءة التى قرأت بها على أبى عبد الرحمن السلمى عن على . والقراءة التى أقرأتها أبا بكر بن عياش هى القراءة التى كنت أعرضها على زر بن حبيش عن ابن مسعود .

فى ص ٤٦ « فى مثل الفعلين باع وقال يظهر أنه قد أتى عليهما حين من الدهر كان ينطق بهما بَيْعَ وقَوْلَ بفتح فسكون ثم تطور الصوت الأول « ai » إلى « e » والصوت الثانى « aw » إلى « o » ثم تطور إلى « a » أى أن فتحة فاء الكلمة فى الفعل الأول قد أميلت إلى الكسرة وفى الفعل الثانى قد أميلت إلى الضمة — وحقه أن يقول تُغمت لأن هذا هو الاصطلاح كما فى النشر وكتاب سيبويه ومفصل الزمخشرى — ثم تطورت الإمالة إلى الفتح باع وقال » .

اين الدليل على أنه أتى عليهما حين من الدهر كان ينطق بهما بَيْعَ وقَوْلَ مع أن الأفعال الماضية الصحيحة وهى الأكثر متحركة الوسط ويقاس على وزنها الأجوف ولِمَ لَمْ تكن مثلا من أول أمرها قال وباع والطفل يقول بابا وماما من أول الأمر وهل اللفظ الإنجليزى made كان أصله مثلا maid ثم تطور فصار made وأنه ينتظر تطوره إلى mad التى تعنى آخر محافظاً على معناه وهل لفظة sad مثلا كانت said ثم تطورت إلى sade ثم صار أخيراً sad حيث يقول لنا فى ص ٤٧ تلك هى المراحل التى تبررها القوانين الصوتية ، وهل لفظة home كانت haim ثم تطورت إلى home وستصير مستقبلا ham وأرجو ألا يحتج على بمثل write وماضيها wrote لأن الأول مضارع والثانى ماض ، وإلا فيمت أن الأول كان يستعمل الماضى أولاً ، ومع ذلك فهل سيصير مستقبلا rat بالمعنى الأصلى لا المعنى الحالى ، ثم ما قوله فى الشعر الآتى :

ليت وهل ينفع شيئاً ليت ليت شباباً بوع فاشتريت

و : حوكت على نيرين إذ تحاك تختبط الشوك ولا تشاك

فى ص ٥٢ « ثم قسموا الإدغام إلى كبير وهو الذى فيه يفصل بين الصوتين الساكنين صوت لين قصير « أى حركة » وقد نسب الإدغام إلى أبى عمرو بن العلاء ، وهذا النوع من الإدغام يتطلب عمليات صوتية معقدة قبل أن يتحقق .. أما النوع الثانى للادغام عند القراء فهو الإدغام الصغير وفيه يتجاوز الصوتان الساكنان دون فاصل من أصوات اللين وهو الذى شاع فى معظم اللغات لأن شرط تأثر صوت بآخر هو التقاؤهما التقاء مباشراً » .

أما أن الإدغام الكبير يتطلب عمليات صوتية معقدة قبل أن يتحقق ففيه نظر لأنه لا فرق بين الصغير والكبير إلا أن الكبير يكون فيه المثلان أو المتجانسان أو المتقاربان متحركين مثل : قذهب بسمعهم و يشفع عنده . والصغير يكون أولهما ساكناً مثل : اضرب بعصاك واذهب بكتابى ، أما شروط تأثر صوت بآخر هو التقاؤهما التقاء مباشراً ففيه نظر أيضاً لأن كلمة سراط وسيطر وباسط وغيرها تأثرت السين بالطاء فقلبت صاداً أو أشمت فقرئ صراط ومصيطر وباصط الخ وقرئ بعضها بالإشمام وكلها قراءات صحيحة مسموعة وليس الالتقاء فيها مباشراً بل فصلت بينها أصوات ساكنة وأصوات لينة .

ص ٥٧ « على أنه قد روى أيضاً أن بعضاً من تميم يقلبون الهمزة الساكنة إلى صوت لين من جنس حركة ما قبلها فيقولون فى رأس وبئر وشؤم على الترتيب راس وبير وشوم » .

لقد نقل هذا الخطأ عن حفنى ناصف بك فليس هناك كتاب ينسب إلى تميم أو بعضها تسهيل الهمزة ، لأن التميميين أحرص العرب على النبر وذلك باجماع كتب اللغة ، فمن أين جاء به وكيف تجمع القبيلة بين متناقضين ؟ وقد يجاب أن أبا عمرو التميمى كان يسهل كثيراً من الهمز فى قراءته ولكن الجواب قد قدمته فى مقالى المنشور بالرسالة فى العدد ٨١٣ من أبى عمرو وهو أنه تأثر بشيوخه الحجازيين وهم أكثر من أخذ منهم ، وكانت نشأة أبى عمرو الأولى فى مكة والحجاز .

ص ٦٣ ذكر ما اختلفت فيه القبائل من جهة الإعراب

وأورد . ليس الطيب إلا المسك وما الحجازية وإن النافية وكم الخبرية — مع ملاحظة أنه وضع علامة استفهام بعد أمثلة كم الخبرية ولعله سهو — ولعل والجر بها ومتى .. الخ ثم قال فى ص ٦٥ «والحق أن هذا النوع من الاختلاف الإعرابى لا يمت للهجات العربية بصلة ، وإنما هو من صناعة النحاة حين اشتد الجدل بينهم فلم تكن لهجات الكلام عند القبائل تلتزم الإعراب على الصورة التى رويت لنا فى كتب النحاة ، وإنما التزم الإعراب على تلك الصورة فى اللغة الأدبية التى نزل بها القرآن الكريم ونظم الشعر» ثم قال فى ص ٦٦ «وإلا فكيف يتصور من الناحية الصوتية أن لساناً يعجز عن نصب خبر ما أو نصب اسم لعل أو جر تمييز كم الخبرية»

ونحن قد نسلم أولا — جدلا — أن هذا من صنع النحاة فكيف رضى فى صفحة ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ أن يعتبر صنع النحاة يمت للهجات العربية حين يقول إن القبائل البدوية تميل بوجه عام إلى الضم واستشهد له ص ٧٣ بورود : ياأيهُ الناس ونحن اللذون صبحوا الصباحا وأن بنى تميم يعربون أمس . فكيف تصورنا هنا أن لساناً يعجز عن ياأيها الناس ونحن الذين وبناء أمس على الكسر أم أننا حين نقرر نظرية ننكر وحين نقرر نظرية أخرى نثبت ؟ ومع ذلك فإن هذه الاختلافات الإعرابية التى نسبها إلى صنع النحاة قد جاءت فى القراءات والشعر ، فقد قرأ ابن مسعود : ما هذا بشر ، وقرئ فى رواية المفضل عن عاصم : ما هن أمهاتهم بالرفع . وورد فى الشعر :

لعل أبى المغوار منك قريب متى لجج خضر لهن نئيج

فلا معنى لأن نكذبهم فى كثير ونصدقهم فى قليل بدون مبرر

ص ٧٠ «القبائل البدوية تميل إلى الأصوات الشديدة فى حين أن أهل المدن المتحضرة يميلون إلى رخاوة تلك الأصوات الشديدة بوجه عام ، فالباء والتاء والدال والكاف وغيرها من الأصوات الشديدة قد نسمعها فى أفواه المتحضرين : فاء . سيناً . زاياً . شيناً . على الترتيب» أما أنا فأعترف أننى لم أسمع أحداً من المتحضرين يفعل ذلك ، ولعلنا سنسمع فى المستقبل من ينطق جملة : بركت دابتك هكذا : فرشس زافسبن ، وجملة بقيت بيتى عندكم هكذا : فنيس فيسى عنزشم ، وحينئذ ننتقل بالتحضير إلى الرطانة . أما إذا كان قصده بالتاء الثاء وبالدال الذال وحدث خطأ مطبعى فأقول أيضاً إن الثاء حاليا تنطق تاء . توب . تلاتة . تور . تعبان .. الخ والذال تنطق دالا : دهب . ديب . ديل .. الخ ومع ذلك تبقى الباء والكاف فنسمع جملة بنتك ما فى ذا كرتى هكذا فستنش ما فى زاشرتى .

ص ٨٦ «أجمع الرواة على نسبة صفة خاصة لقبائل ربيعة سموها أحياناً بالكشكشة وحيناً آخر بالكسكسة ... ثم قال ونحن حين ننظر إلى هذه الروايات على ضوء القوانين الصوتية نستطيع أن نستخلص أموراً :

١ — أن الكسكسة بالسين لا وجود لها فى اللهجات العربية

٢ — أن الكشكشة مقيدة بكاف مكسورة ..

٣ — ليست الكشكشة مقيدة بحالة الوقف .

٤ — لا بد فى الكشكشة أن تحل الشين محل الكاف .

٥ — أن ما خيل للقدماء أنه شين ليس شيناً خالصة —

وأراد حرف «تش ch» ثم يقول وهذا الصوت هو نفس ما سمعه القدماء فى تلك الظاهرة ، ثم نقل حفنى ناصف أن لهجة بلدتى شرويدة وزنكلون وما حولها من مديرية الشرقية يجعلون الكاف كالشين فى مثل الكلمتين : كلب وكتاب . ثم يقول : «وعلى هذا فلا شك أن أهل شرويدة وزنكلون ينطقون بكلمة كلب على أنها مكسورة الكاف ...»

إن أغلب الرواة والكتب القديمة والحديثة يقرنون الكشكشة بالكسكسة ولا يفردونهما . واختلافهم إنما هو فى نسبة كل منهما إلى القبيلة — انظر الصاحبى والقاموس وشرحه ولسان العرب والصحاح وكافية ابن الحاجب والأشمونى وخزانة الأدب — وليس كل منهما قد نسبه معظم الرواة إلى قبيلة واحدة فقد نسب إلى تميم وإلى أسد ، وإلى هوازن من قيس ، وإلى بكر من ربيعة وإلى مضر عموماً شاملة تميماً وقيساً وأسداً ، وإلى ربيعة عموماً شاملة بكراً وتغلب . ومن مجموع هذه الروايات يتبين أن الكشكشة والكسكسة موجودتان . على أن الدكتور أنيس فى قسم المترادفات ص ١٤٥ ذكر أنه قام بجمع عشرات من الكلمات مع ذكر العلاقة الصوتية بينها ، ومما ذكره ص ١٥٢ تحت اختلاف المخرج : الرعس والرعش . والنبس والنبش .الخ» كما أننا نجد كثيراً من الأطفال وبعض الكبار يجعلون الشين سيناً . فإنكار الكسكسة ليس له ما يبرره بل يجب أن ندرسه .

أما أن الكشكشة مقيدة بكاف مكسورة وإلزام أن يكون أهالى شرويدة وزنكلون وما حولها من مديرية الشرقية ينطقون بكلمة كلب على أنها مكسورة الكاف فهو إلزام بدون ملزم إذ ليس من ذكرهم يكسرون الكاف فى كلب ولا كون ، ولم ينقل ذلك من نقل عنه مع أنه نقل كسر أول المضارع فى موضوع آخر تحت

ملاحظة أخرى . على أن اللهجات العامية فيما كان على وزن فِعال وفُعال بضم الأول أو كسره ككتاب وحصان وبساط وغراب وصداع يسكنون فاء الكلمة فيقولون كْتاب وغْراب وذلك البدء بالساكن موجود في اللغات الأخرى Flag brass كما أن حرف تش ch ينطق في كثير مفتوحاً « charm chap chant chaff char » . والرواة لم يقيدوا الكشكشة بحالة الوقف ، بل قالوا من الناس من يجرى الوصل مجرى الوقف ورووا فعيناش عيناها وابيش اللهم لبيش ، وعلى فيها ابتق ايفيش . الخ ما رواه الدكتور نفسه في صفحات ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، أما ما استخلصه تحت رقم ٤ فيناقضه ما هو منتشر في اللهجات العامية الآن — ولندع قول القدماء فإنه يناقضه أيضاً — من أنهم يلحقون شيناً آخر الكلام في النفي والاستفهام التقريري سواء كانت هناك كاف أم لم تكن في وصل الكلام ووقفه فيقولون يافلان ما تلعبش وماقابلتكش وسافرش فلان ؟ ونحن وإن كنا نستطيع إرجاع الشين في بعض الأحوال — ما عدا الاستفهام وما آخره كاف خطاب — إلى لفظة شئ مثل ما تلعبش أصلها لا تلعب شيئاً ، ثم ضاعت الحركة الإعرابية والتنوين بفعل العامة فصارت ما تلعبشى أو ما تلعبش ، إلا أننا لا يمكن أن نرجعها في مثل سافرش فلان ؟ وماسمعتكش تتكلم إذ لا يؤدى المعنى المقصود قولك أسافرشئ فلان ؟ وما سمعتك شيئاً تتكلم إلا بتكلف وتجوز بعيد ، ولهذا نرجع أمثال ذلك إلى التوسع في لهجة ربيعة ومضر . وعلى كل حال فهنا صوت آخر اتصل بصوت سابق .

ص ١٢٨ « كل لهجة من اللهجات أو مجموعة منها قد التزمت اشتقاق المضارع من الماضي الثلاثي على هيئة خاصة ولا تشذ عنها إلا في النادر » .

ولقد كتبت في الرسالة في العدد ٨٠٥ مبيناً خطأ ذلك ولا داعى لتكراره على أننا في لهجاتنا العامة لا نسير على نظام واحد في اشتقاقنا نقول يكتب ويرسم وينضج ... الخ بكسر الثالث ونقول يرطن وينتر ... الخ بضم الثالث ويعلم ويلعب .. الخ بفتح الثالث وكل هذا مما له أوزان في الفصحى قد توافق العامة وقد لا توافقها . أما الإمالة والتسهيل ونحوهما فذلك من العادة اللغوية التي لا تشذ عنها الجماعة المرتبطة والبيئة المتفقة .

ص ١٣٩ « روى أن أبا هريرة لم يعرف المقصود من لفظة السكين لأنها في لهجته تسمى المدية ثم قال : ولعل هذه الحادثة كانت قبل نزول القرآن الكريم بلفظ السكين في سورة يوسف » ولو أنه اكتفى بالمثل دون التعليل لكان أحسن لأن أبا هريرة أسلم سنة سبع من الهجرة وسورة يوسف نزلت قبل الهجرة ولو قال قبل سماعه سورة يوسف لكان أدق .

ص ١٤٠ ذكر أن رجلا ذهب إلى أحد ملوك اليمن فاطلع إلى سطح والملك عليه فلما رآه الملك اختبره فقال له ثب ... الخ ولست أدرى سبب زيادة « اختبره » لأن القصة وسؤال الملك ما شأنه وإجابة الحاضرين وقول الملك ليست عربيتنا كعربيتهم تنفى أنه اختبره .

ص ١٦٧ « لفت الشيء بمعنى كتبته في لهجة عقيل وبمعنى عوته عند قبائل قيس » مع أن عقيلا من قبائل قيس ولو قال عند بقية قبائل قيس لكان أفضل .

لقد أعجبنى كل الإعجاب تحليله في الإمالة ووصوله في ص ٤٧ ، ٤٨ إلى أن الكلمات التي أصلها ياًى تكون الإمالة فيها هى الأصل ويكون الفتح تطوراً والحجازيون قد قطعوا مرحلة في تطور لهجتهم . وإن الإمالة لأجل الحركة في مثل كتاب وهى التي كان سببها الكسرة للانسجام بين أصوات اللين يكون أصلها الفتح وتكون الإمالة تطوراً إلى مرحلة الانسجام . وكنت أنتظر أن يحكم بعد هذا بأن الحجازيين يميلون الألف لأجل الكسرة لأن النظرية التي قررها سليمة وهى نظرية السهولة والاقتصاد في الجهد العضلى تتجه إليها القبائل المتحضرة ولكنه لم يسعفه الدليل فقال ص ٦٩ « أما حين تكون الإمالة نتيجة انسجام بين أصوات اللين كما في إمالة نحو كتاب فتلك صفة اختصت بها القبائل البدوية وقد سبقت فيها القبائل المتحضرة » ولو رجع إلى الهمع مثلا لوجد النظرية صحيحة إذ نص على أن الحجازيين يميلون الألف لأجل الكسرة . ولاستغنى عما قاله ص ٦٩ فناقض به نظريته الصحيحة .

إنى أكتفى بهذا القدر وأعتقد مع ذلك أن كتاب اللهجات العربية قيم في أبحاثه جميل في عرض موضوعاته وإنى إذ أنقد كتاب أستاذى فإنما أعطى حق العلم أيضاً ولكل إنسان رأيه وبخاصة أنه كتاب نشر على الناس وأصبح من حق الجميع فإما كنت على حق فيعاد النظر فيما نقدته وإما كنت مخطئاً أو لم أفهم بعد فيردنى المؤلف والقراء مع رجائى ألا يكون علم الأصوات الحديث هو كل شئ في الرد وبخاصة ما استنبط بمقارنة السنسكريتية باللاتينية واليونانية مع التعليل المقبول لما عارضت به .

عبد الستار أحمد فراج
محرر بالمجمع اللغوى

مطبعة الرسالة